

حياة أحمد بن حنبل

١٦٤ - ٢٤١ هـ

٩ - مولده ونسبه: ولد أحمد رضى الله عنه ، فى المشهور المعروف ، فى ربيع الأول من سنة ١٦٤ من الهجرة النبوية ؛ وقد ذكر ذلك ابنه صالح ، وحكاه ابنه عبد الله ، فقد قال : سمعت أبى يقول ولدت فى شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة . ولم يختلف الرواة فى زمن ولادته ، كما اختلفوا فى ولادة أبى حنيفة ومالك رضى الله عنهما ، ذلك بأنه قد ذكر هو تاريخ هذه الولادة ، وكان على علم به ، ولم يترك الأمر لظن الرواة ، وتحرص المؤرخين ، فكان بيانه فى ذلك قاطعا ، وما نعا للشك أو الظن .

وإذا كانت ولادته قد علم تاريخها من غير ظن أو مجال للشك ، فقد علم أيضا تاريخ وفاته من غير ما شك ، فقد تطابقت الأخبار على أنه توفى لاثنتى عشرة خات من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين ، وكانت جنازته يوم الجمعة ، وأخرجت بعد منصرف الناس من إقامة صلاة الجمعة . ولا غرابة فى أن يعرف تاريخ وفاته بالتعيين ؛ فقد كان يوما مشهودا فى تاريخ بغداد ، تجاوزت بذكره الأقطار الإسلامية ، لكثرة الذين شيعوا جنازته ، فقد أحصوا فكانت عدتهم لا تقل عن ثمانمائة ألف ، ولأنه عند ما مات كانت شهرته قد تجاوزت آفاق العراق إلى كل البقاع الإسلامية ، فكانت وفاته حدثا كبيرا تعرفه الجماعات ، وتتناوله الأخبار من غير ظن ولا ريب .

١٠ - وقد ولد أحمد ببغداد ، وقد جاءت أمه حاملا به من مرو التى كان بها أبوه ، وقيل أنها ولدته بمرو ، ولكن الصحيح أنه ولد ببغداد ، وحملت به فى مرو وقد نقل عنه ذلك ، فلم يعد ثمة مجال للخرص . ونسبه عربى ، فهو شيبانى فى نسبه لأبيه وأمه ، أبوه شيبانى ، وأمه كذلك ، فلم يكن أعجميا ولا هجينا ، بل كان عربيا خالصا ،

وشيبان قبيلة ربيعة عدنانية ، تلتقى مع النبي صلى الله عليه وسلم في نزار بن معد ابن عدنان ، وفي هذه القبيلة هممة وإباء ، وحمية ، كان منها المشني بن حارثة الذي تولى قيادة الجيوش الإسلامية عند مهاجمة العراق في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وهو الذي حسن لخليفة رسول الله ذلك ، وتولى بهيمته أولى الحملات ، فشهد له الصديق في ذلك بأحسن البلاء . ولقد اشتهرت شيبان بالهمة والصبر ، وحسن البلاء ، في الجاهلية والإسلامية ، حتى كانت أبرز القبائل الربعية وغررها ، ولقد قيل : « إذا كنت في ربيعة فكأثر بشيبان ، وفاخر بشيبان ، وحارب بشيبان »^(١) ، فشيبان في الجاهلية والإسلام أكثر القبائل الربعية عددا ، وأعزها نفرا ، وأعظمها مآثر . وشيبان كانت منازلها بالبصرة وباديتها ، وقد كانت في الجاهلية قرية المقام من العراق ، فلما بنى عمر بن الخطاب رضي الله عنه البصرة مظلة على الصحراء لينزل بها العرب ، يستشفقون فيها هواء الصحراء ، ولا يستوخمون بهواء الريف - نزلت شيبان بتلك المدينة الحضرية الصحراوية فسكنوها ، وسكنوا في باديتها . وكانت أسرة أحمد ، وأسرة أمه ، تنزل بتلك المدينة ، ويبدأها ، إذ كان جدها عبد الملك بن سواده بن هند من وجوه بني شيبان ، ينزل عليه قبائل العرب ، فيضيفهم .

ولأن أسرته أصلها من البصرة عرف بأنه بصرى^(٢) ، ويروى أن أحمد رضي الله عنه كان إذا جاء البصرة صلى في مسجدمازن ، وهم من بني شيبان ، فقليل له في ذلك ، فقال إنه مسجد آبائي .

١١ — كانت أسرة أحمد من شيبان ، وأصل مقامها بالبصرة كما رأيت ، والان نريد أن نذكر أباه وجده بكلمات موجزة ، فأبوه محمد بن حنبل ، وجده حنبل بن هلال ، ومع أن مقام الأسرة بالبصرة كما نقلنا ، وكما تبين من سياق سيرة أحمد ، فإن أسرة أحمد لم يستمر مقامها بها ، بل إن جده قد انتقل إلى خراسان ، وكان واليا على

(١) تاريخ بغداد ص ٤ ص ٤١٥

(٢) المناقب لابن الجوزي ص ٢١

سرخس في العهد الأموي ، ولما لاحت في الأفق الدعوة العباسية عاون دعايتها ، وانضم إلى صفوفهم ، حتى أودى في هذا السبيل ، وقد قال الخطيب البغدادي في ذلك : « جده حنبل بن هلال ، ولي سرخس ، وكان من أبناء الدعوة ، فسمعت اسحاق بن يونس صاحب ابن المبارك يقول : ضرب حنبل بن هلال ، وأبا النجم اسحاق بن عيسى السعدي - المسيب ابن زهير الضبي ، في دسهم إلى الجند في الشغب ، وحلقهما » (١) .

وأبوه محمد كان جنديا ، وقد وصفه ابن الجوزي عن الأصمعي ، بأنه كان قائدا ، فقد قال عن أبي بكر الاعمين « سمعت الأصمعي يقول : أبو عبد الله أحمد ابن حنبل من ذهل ، وكان أبوه قائدا » (٢) وذهل هو جد شيبان الذهلي ، وقد قال ابن الجزري : « كان أبوه في زى الغزاة » (٣) .

وسواء أكان قائدا كما ذكر في المناقب لابن الجوزي ، أم كان في زى الغزاة كما ذكر ابن الجزري ، فقد كان جنديا ، كشأن العرب في ذلك العصر ، لا يكونون زراعيين ولا صناعا ، بل يكونون حماة وغزاة ، وكان جده قد بلغ مبلغ الولاية ، فكان واليا على سرخس ، حتى صار من أبناء الدعوة العباسية ، وأودى في ذلك .

ويظهر إن أسرته كانت بعد انتقالها إلى بغداد تعمل للخلافة العباسية ، ولم ينقطع اتصالها بها ، وإن لم يكن منها ولاية ، فإنه يروى أن عم أحمد كان يرسل إلى بعض الولاية بأحوال بغداد ليعلم بها الخليفة إذا كان غائبا عنها ، وكان أحمد يتورع عن المشاركة في ذلك منذ صباه ، حتى أنه يروى أن بعض الولاية قال : أبطأت على أخبار بغداد ، فوجهت إلى عم أحمد ابن حنبل : لم تصل إلينا الأخبار اليوم ، وكنت أريد أن أحررها وأوصلها إلى الخليفة فقال قد بعثت بها مع أحمد ابن أخي ثم أحضر أحمد ، وهو غلام ، فقال : أليس قد بعثت معك الأخبار ، قال : نعم . قال فلاي

(١) تاريخ بغداد - ج ٤ ص ٤١٥

(٢) المناقب ص ١٤

(٣) المصعد لابن الجزري

شيء لم توصلها؟ قال : أنا كنت أرفع تلك الأخبار !! رميت بها في الماء ، فجعل الوالى يسترجع ، ويقول : « هذا غلام يتورع ، فكيف نحن ^(١) »
فهذه القصة تدل على أن أسرة أحمد لم تنقطع صلتها بالخلافة والولاية ، ولم يكن أحمد يستحسن ذلك ، تورعا وابتعادا عن الريب منذ صباه .

١٢ - ولد أحمد الورع التقى من هذين الأبوين الكريمين ، فهذه أمه قد كان أبوها من وجوه بني شيبان ، جوادا كريما قد فتح بابا للعرب ، تنزل عليه القبائل فيضيفها ، وهذا جده ندب محتسب قوى يتولى الولاية ، ثم يرى دعوة يحسبها الحق ، فيناصرها ، وينزل به في سبيل هذه المناصرة الأذى الشديد ، فيصبر صبر الكرام ، وهذا أبوه جندي يحمى الحنى ، ويدافع عن الحوزة وما خلع زى الغزاة ، بل كان على ذلك إلى أن مات .

من هذين الأبوين الكريمين كان أحمد ، وفي عروقه جرى ذلك الدم الأبي الكريم ، وورث عن أسرته عزة النفس وقوة العزم ، والصبر واحتمال المسكاره ، والإيمان الراسخ القوى ، وكان ذلك كله ينمو كلها شدا وترعرع ، ويتبين في سجايها ، كلها عركته الحوادث ، وأصابته نيران الفتن .

١٣ - ولقد هيا الله لهذه السجايا الموروثة أن تنمو ، وأن تقوى ، إذ أمدتها بالجو النفسى الذى تنفس فيه ، وتتغذى من طيب هوائه ، وصقلها بالتجارب التى جلت الصدا الذى يعرض للنفوس بسبب سيطرة البيئات ، ثم هداها إلى النزوع الفكري والنفسى الذى يوائمها ، ولا ينهاهها .

وذلك أنه لم يكذب يرى نور الوجود ، حتى رأى به يريد فيه ، قد فقد أباه ، وكلا أمه ، فإن أباه قد مات وهو طفل ، ويذكر أنه لم ير أباه ولا جده ، والمعروف أن أباه مات بعد ولادته ، وإذا كان قد مات بعد ولادته ، فلا بد أن ذلك كان وهو صغير لا يعي ولا يدرك شيئا ، بدليل أنه نفي رؤيته لأبيه وجده ، وذكروا أنه مات شابا في الثلاثين

من عمره . ولقد قامت أمه على تربيته في ظل الباقي من أسرة أبيه ، ولم يتركه أباه
كلا يطلب المعونة ، بل ترك له ببغداد عقارا يسكنه ، وآخر يغل له غلة قليلة
وهي تعطيه السكفاف من العيش ، ولم تعطه رافع العيش ولينه وبسط الرزق ،
ويساره ، فاجتمع له بتلك الغلة الضئيلة أسباب الاستغناء عما في أيدي الناس .

١٤ - اجتمع لأحمد بهذا النسب ، وبهذه الحال التي آلت إليه أمره ، وهو صبي
في المهد ، وبما كان له من نزوع نفسى من بعد خمسة أمور لم تجتمع لشخص
إلا سارت به إلى العلا ، والسمو النفسى ، والبعد عن سفاسف الأمور ، والاتجاه إلى
معاليها ، تلك الأمور هي : شرف النسب والحسب ، واليتم الذى ينشئه منذ فجر الصبا
معتمدا على نفسه وتدريبه وبلائه ، وحال من الفقر غير المقدح لا تستخذى به
النفس ، فلا يبطرها النعيم ، ولا تصاب بطراوة الترف ، ولا تذللها المتربة ، ولا تلقى
المتربة أنفها في الرغام ، ومع هذه الخصال قناعة ونزوع إلى العلا الفكرى بتقوى
الله سبحانه وتعالى ، وعدم الشعور بقوة لسواه ، والتقى كل هذا بعقل ذكى ،
وفكر ألمعى .

وكان في هذا كشيخه الشافعى ، نسب رفيع ، ويلم ، وحال من الفقر الذى يجد
فيه السكفاف ، ولا يستخذى بالحاجة ، وهمة عالية ، ونفس أبية ، وعقل ذكى أريب
ولقد تشابهت نشأة التلميذ والأستاذ تشابها غريبا ، فكلاهما كان بهذه الأحوال التى
ذكرناها ، وكلاهما كانت له أم ترأمة وتدفعه إلى العلا ، وتكثف مواهبه لتزكو
وتنمو ولا تجعها تنطفئ أو تخبو .

١٥ - وإن ما قلناه هنالك فى تأثير هذه الأحوال فى نفس الشافعى وتربيته
نقول له هنا ، ولقد قلنا هنالك إن النشأة الفقيرة مع النسب الرفيع تجعل الناشئ ينشأ
على خلق قويم ، ومسلك كريم ، إن انتفت الموانع ، ولم يكن ثمة شذوذ ، ذلك
بأن علو النسب يجعل الناشئ منذ نعومة أظفاره يتجه إلى معالى الأمور ، ويتجافى
عن سفاسفها ، ويرفع عن الدنايا ، فلا يصيب الفقر نفسه بذل ، ولا يتطامن عن
ضعة ، ولا يرضى بالدنية ، ويسعى إلى المجد بهمة وجلد ، ليرفع خسيصة الفقر ،

ثم إن نشأته فقيراً مع ذلك الطموح ، والاحساس بشرف النسب ، يجعله يحس باحساس الناس ، ويندج في أوساطهم ، ويتعرف خبيثة نفوسهم ، ودخائل مجتمعاتهم ، ويشعر بشعورهم ، وذلك ضرورى لكل من يتصدى لعمل يتعلق بالمجتمع ، وما يتصل به في معاملاته ، وتنظيم أحواله ، وتوثيق علاقته ، وإن تفسير الشريعة ، واستخراج حقائقها ، والكشف عن موازينها ومقاييسها ، يتقاضى الباحث ذلك . يروى أن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة كان يذهب إلى الصباغين ، ويسأل عن معاملاتهم ، وما يجرى بينهم ، وما كان يفعل ذلك إلا ليكون حكمه في مسألة تتعلق بشئون الناس ، وتتصل بعاداتهم أقرب إلى تلك العادات ، مالم تخالف أصلاً من أصول الشرع وأحكامه ، فهذه النشأة الفقيرة مع النسب الرفيع تهياً بها تهذيب كامل ، لا يتسامى عن العامة ، فيبعد عنهم ، ولا يهوى إلى مبادئهم فيصغر ، فكان لنسبه علوه ، وفقره طيبته (١) .

١٦ — ولقد كان لنسبه وفقره غير المدقع أثرهما ، عند ما ألقى الدنيا بين يديه ، فألقاها بعيداً عن مواضع أقدامه ، ونحاهما عنه بنفس نزهة ، وقلب تقي ، كان يهدى إليه المتوكل بدر الأموال ، فيردها في تواضع كريم ، وكان متطامن النفس محسناً بإحساس الناس ، ما نزل إلى مبادئ الناس ، وما تسامى عليهم بنسبه الرفيع ، حتى لم يلاحظ عليه قط نحر بنسبه العربى ، ولقد قال كتاب سيرته إنه مارى الفقير عزيزاً في مجلس ، كما كان في مجلس أحمد رضى الله عنه ، وهذه الخصال الكريمة قد نبعت من ذلك النبع الكريم الذى امتزج فيه شرف النسب بقناعة الفقر ، وبسمو الروح ، وفضل التقي .

١٧ — تربيته : نشأ الإمام أحمد رضى الله عنه ببغداد ، وتربى بها تربيته الأولى ، وقد كانت تموج بالناس الذين اختلفت مشاربهم ، وتخالفت آرائهم ، وزخرت بأنواع المعارف والفنون ، فيها القراء والمحدثون ، والمتصوفة ، وعلماء اللغة ، والفلاسفة الحسكاه ، فقد كانت حاضرة العالم الإسلامى ، وقد توافر فيها ما توافر في حواضر

العالم، من تنوع المسالك، وتعدد السبل، وتنازع المشارب، ومختلف العاوم، وقد اختارت أسرة أحمد له منذ صباه أن يكون رجل الدين الذي يتوافر له، يعكف عليه، ويتخذ له كل العلوم المهمة له من علم باللغة، والحديث، والقرآن، وما أثر الصحابة والتابعين وأحوال الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته، وسيرة أوليائه الأقربين الذين اختصوا بطول الصحبة، وفقه الدين، ولب اليقين، وقد اتفقت هذه التربية، أو هذا التوجيه، مع نزوعه النفسى، وما كانت تصبو إليه همته من غايات، لقد وجهته أسرته إلى القرآن الكريم منذ نشأته الأولى، فاستحفظه، وظهرت عليه الألمعية مع الأمانة والتقى، فكان الانلام التقي بين الغلمان، كما صار من بعد الشاب التقي، ثم السكهل الذي الذى أبلى البلاء الأكبر فى الإسلام، واحتمل المكاره فى سبيل ما يعتقد، أو ما يراه تهجها فيما ليس له به علم.

حتى إذا أتم حفظ القرآن، وعلم اللغة، اتجه إلى الديوان ليرن على التحرير والكتابة، ولقد قال فى ذلك: «كنت وأنا غليم أختلف إلى الكتاب، ثم اختلفت إلى الديوان، وأنا ابن أربع عشرة سنة».

وكان وهو صبي محل ثقة الذين يعرفونه من الرجال والنساء، حتى إنه يروى أن الرشيد، وهو بالرقعة مع جنده، كان أولئك الجند يكتبون إلى نساءهم بأحوالهم، فلا يجد النساء اللاتي يعرفن أحمد ذيره يقرأ لهن ما كتب به إليهن، ويكتب لهن الردود، ولا يكتب ما يراه منكراً من القول.

ولقد كان نجيته واستقامته أثرين ملاحظين لكل أترابه، وآبائهم، يتخذونه الآباء قدوة لأبنائهم، حتى لقد قال بعض الآباء: «أنا أنفق على ولدى وأجيره بالمؤدين، على أن يتأدبوا، فما أراهم يفلحون، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم!! انظروا كيف، وجعل يعجب من أدبه، وحسن طريقته^(١)».

١٨ — إذا كان الطفل الصغير، هو سر الرجل الكبير، والنواة الصغيرة فى مطوئها الشجرة الكبيرة، فكذلك كان ذلك الغلام اليتيم أحمد بن محمد بن حنبل، الذى

كان يمتنع عن كتابة ما يوجب الورع ألا يكتبه ، ويمتنع عن إرسال كتاب لعمه يرى أن الصلاح لا يوجب ، أو ليس رضا الله فيه خالصا ، بل رضا السلطان هو المقصود الأول ، كما رأيت في امتناعه عن توصيل كتاب عمه إلى الوالي ، لتوصيل الأخبار إلى الخليفة ، فكان ذلك الغلام هو الذي يطوى في نفسه سجايا ذلك الإمام .

اشتهر الغلام أحمد بين الأقران بالتقوى والعناية بعمله ، والصبر والجد ، واحتمال ما يكره ، فلم يكن الغلام الذي تستخرقه ميعة الصبا ، ورعونة الصبيان ، بل كان الرجل الكامل ، وإن كانت السن سن الصبيان ، ولعل ذلك من فرط اعتماده على نفسه صغيراً ، وإحساسه بالاستقلال النفسى منذ طفولته ، ولقد استرعت هذه الصفات نظر العلماء الذين اتصل بهم في ذلك العهد ، حتى لقد قال فيه الهيثم بن جميل : « ان عاش هذا الفتى ، فسيكون حجة على أهل زمانه » (١) .

ويظهر أن هذه النبوءة قد تحققت ، فقد عاش الفتى ، حتى اكتملت رجولته ، ووصل إلى السابعة والسبعين ، وكان نورا لأهل زمانه ، بعلمه ، وخلقه وورعه ، وصبره وقوة احتماله ، واستهانتة بالأذى في سبيل ما يعتقد .

١٩ — شب أحمد عن الطوق وكان يتجه إلى العلم ، وجهته أسرته إليه ، واستقام ذلك التوجيه مع نزوعه الخاص ، وبذلك تلاقت ميوله مع الوجهة التي وجه إليها ، وكانت بغداد فيها علوم الدين ، واللغة ، والرياضة ، والفلسفة ، والتصوف ، وكل هذه الأشجار قطوفها دانية ، فكان لابد أن يقتطف أحمد منها ، وإن الذي يتفق مع النشأة الأولى هي علوم الدين لا ريب في ذلك ، وما تمهد إليه ، لذلك علم علوم اللغة باعتبارها طريق علوم الدين ، كما كان الشأن في ذلك العصر ، وكما هو المعقول في ذاته .

وإذا كان بين يديه أن يختار من علوم الشريعة ، فهو إما أن يختار مسلك الفقهاء ، وإما أن يختار أن يكون راويا من رواة الحديث ، وحافظا من حفاظه ، فقد ابتدأت الطريقتان تميزان في عصره ، وابتدأ العلما ينفصلان ، علم الفقه ، واستخراج الفتاوى ، والأقضية ، وعلم الرواية ، وتمييز الرواة ، وإعداد المادة للفقهاء لتكون بين

أيديهم كالمادة الطيبة بين الأطباء ، يعدها لهم الصيادلة ، كما قال الأعمش المحدث لأبي حنيفة الفقيه ، ولقد كان في العراق المنزاعان ، وعن أيهما ينزع أحمد بقوسه ، وكلا الموردين صافي المنهل عذب .

كان في بغداد فقه العراق ، وقد دونه أبو يوسف ومحمد ، والحسن بن زياد اللؤلؤي ، وذيرهم ، وكان في بغداد المحدثون والحفاظ .

٢٠ — ولقد اختار أحمد في صدر حياته رجال الحديث ، ومساكنهم ، فأتجه إليهم أول اتجاهه ، ويظهر أنه قبل أن يتجه إلى المحدثين راد طريق الفقهاء الذين جمعوا بين الرأي والحديث ، فيروى أن أول تلقيه كان على القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، ولكنه مال من بعد إلى المحدثين الذين انصرفوا بحملتهم للحديث ، فقد قال : « أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف »^(١).

ولكنه لم يدم في الأخذ عنه ، وانصرف كما قلنا إلى المحدثين ، ومع أننا نقرر أنه انصرف إلى الحديث ، لا نقول إنه انصرف انصرافا قطعه عن الاطلاع على ما أنتجته عتول الفقهاء العراقيين من فتاوى وأقضية وتخريج ، بل إنه قد اطلع عليها ، ولكن لم تكن همته إليها ، ولم تكن بغيتها نحوها ؛ وإن كان الاطلاع عليها أمرا له ثمراته في علم الدين ، فلقد جاء في تاريخ الحفاظ الذهبي : « قال الخلال كان أحمد قد كتب كتب الرأي وحفظها ، ثم لم يلتفت إليها » .

فهذا خبر ليس لنا أن نرده ، ولكننا نقبله ، لأنه من غير المؤلف أن تكون تلك النتائج العلمية بين يديه ، ولا يعرفها ، أو يستنكرها قبل أن يطلع عليها ، ولكننا مع قبولنا لذلك الكلام لا نقول إنه اطلع على كتب الرأي وحفظها في مطلع حياته ، بل إن إلمامه بها كان في غضون حياته العلمية بعد أن استمكن من علم الحديث ، وصار فيه الحجة الثابتة الثقة .

وعلى ذلك يكون موقف أحمد من فقه الرأي أنه زاد طريقه في صدر حياته ، بدليل أنه تلقى أول الحديث عن أبي يوسف ، وهو قد كان من فقهاء الرأي ذوى

القدم الثابتة فيه ، وإن كان مع ذلك قد اتصل بالمحدثين ، وأيد رأيه الفقهي بالحديث ، ثم اتجه إلى الحديث ، ولما استكمل تكوينه العلمي درس فقه الرأى دراسة فاحص ناقد يوازن بين ما انتهى إليه من علم الحديث ، وما وصل إليه أولئك الفقهاء من تفريع فقهي ، فاختر طريق الصحابة والتابعين ، وإن كان قد قبس قبسة من فقه الرأى ، وبذلك يكون حفظه لسكتب أهل الرأى على حد تعبير الخلال ، أو معرفته لما وصل إليه أهل الرأى على حد التعبير العامي الصحيح أمراً مقبولاً معقولاً .

٢٠ — طالب أحمد رضى الله عنه في فجر شبابه الحديث ، وكان المحدثون في كل بقاع الأراضى الإسلامية ، ففي البصرة محدثون وفي السكوفة مثلهم ، وبغداد قصبة الدولة ، فيها الكثير منهم ، وبلاد الحجاز تزخر بهم ، وقد التقت المدائن والأنصار التقاء علياً في ذلك العصر ، فلم تكن ثمة محاجزات أقليمية تجعل كل طائفة عاكفة على حديث بلدها ، لا تقبل رواية غيره ، بل كانت الرحلة العلمية المستمرة بين الربوع الإسلامية واصله حبال العلم ، وارسانه النورانية .

وعند ما اعتزم أحمد في مستهل شبابه طلب الحديث كان لا بد أن يأخذ عن كل علماء الحديث في العراق ، والشام ، والحجاز ، ولعله أول محدث قد جمع الأحاديث من كل الأقاليم ، ودونها ، وإن مسنده لشاهد صادق الشهادة بذلك ، فهو قد جمع الحديث الحجازي ، والشامي ، والبصري ، والسكوفي جمعاً متناسباً .

٢١ — وإن المنطق كان يوجب أن يتلقى أولاً حديث بغداد ، حتى إذا استحفظ من حديثها جله طلب غيره ، وكذلك سار ، فهو اتجه إلى الحديث من سنة ١٧٩ ، واستمر مقيماً ببغداد يأخذ من شيوخ الحديث فيها ، ويكتب كل ما يسمع ، حتى سنة ١٨٦^(١) . وابتدأ في هذه السنة رحلته إلى البصرة ، وفي العام الذي يليه رحل إلى الحجاز ، ثم توالى رحلاته بعد ذلك إلى البصرة ، والحجاز ، واليمن ، وغيرها في طلب الحديث .

وإذا كان قد طلب الحديث سنة ١٧٩ ، ولم يرحل رحلة علمية قبل سنة ١٨٦

فكانه استمر يطلب حديث البغداديين نحو سبع سنين أو أكثر ، لم يرحل فيها رحلة علمية ، وإن كان قد سافر فمسافر غير بعيد ، ولغرض قريب .

٢٢ — لقد قصر أحمد نفسه في هذه السنوات السبع على حديث علماء بغداد وما يحفظون من فتاوى مأثورة ، وأقضية للصحابة والتابعين في أبواب الفقه المختلفة . وإنه من المقرر أن الناشئ لا يبتدىء العلم يلقف من هنا وهناك ، بل هو يلزم عالماً من العلماء زمناً طويلاً أو قصيراً ، حتى يتخرج عليه ، حتى إذا شدا وترعرع التقف من الثمرات كل ما يصل إلى يده ، وكذلك كان أحمد رضى الله عنه ، فقد اتجه إلى طلب الحديث ، وفقه الآثار ، منذ بلغ السادسة عشرة سنة ١٧٩ ، ولكنه لم يترك نفسه للمنازع العلمية المختلفة من غير هاد يهتدى به ، بل لزم إماماً من أئمة الحديث وعلم الآثار في بغداد ، واستمر يلزمه نحو أربع سنوات ، فلم يتركه ، حتى بلغ العشرين من عمره . ذلك الإمام هو هشيم بن بشير بن أبي خازم الواسطي المتوفى سنة ١٨٣^(١) ولقد روى عن أحمد خبر تلك الملازمة ومدتها ، فقد قال كما رواه عنه ابنه صالح ، « كتبت عن هشيم سنة تسع وسبعين ، ولزمناه إلى سنة ثمانين وإحدى وثمانين ، واثنتين وثمانين ، وثلاث ، ومات في سنة ثلاث وثمانين ، كتبنا عنه كتاب الحج نحواً من ألف حديث ، وبعض التفسير وكتاب القضاء ، وكتباً صغاراً » وسأله ابنه صالح بعد ذلك القول : يكون ثلاثة آلاف ؟ قال أكثر^(٢) . ولم تسكن تلك الملازمة تامة أى أنه لم ينقطع له انقطاعاً تاماً ، ولم يتصل بغيره في مدى أربع السنوات ، بل كان يتلقى عن غيره أحياناً ، ويحضر بعض مجالس سواه فيروى أنه سمع من عمير بن عبد الله بن خالد سنة ١٨٢ قبل موت هشيم ولقد سمع أيضاً في هذه الأثناء عبد الرحمن بن مهدي ، فيروى أنه قال : « قدم علينا عبد الرحمن بن مهدي سنة ثمانين ، وقد خضب ، وهو ابن خمس وأربعين سنة ، وكنت أراه في المسجد الجامع »

وكان أيضاً يستمع إلى أبي بكر بن عياش ، ويروى عنه .

ومن هذا كله يستفاد أنه مع تخصيصه شيخه هشياً بفضل من الملازمة لم ينقطع عن غيره انقطاعاً تاماً ، بل كان يختلط بغيره ، ويروى عنه ، ويلقب الأحاديث ، حيثما وجد الراوى الثقة ، وخصراً صاً أولئك الذين لهم شهرة علمية في الرواية وجمع الحديث في البقاع الإسلامية .

٢٣ — بعد مرت هشيم أخذ أحمد يتلقى الحديث حيثما وجدته ، وحيثما كان ، ومكث ببغداد نحو ثلاث سنوات يأخذ من شيوخها بجد ودأب ، من غير أن يخص أحداً بفضل ملازمة دون غيره ، كما كان شأنه مع هشيم ، إذ كان قد بلغ العشرين عاماً أو قاربها عند موت هشيم ، فاستوى عوده ، واستقام على الجادة ، وسار في طلب الحديث في دموب وجد وعزم صادق ، وأمه تشجعه وترشده وتدعوه إلى الرفق بنفسه إن وجدت منه إرهاقاً لها ، ولقد حكى أحمد بعض رفقاء به ، فقد قال : « كنت ربما أردت البكور في الحديث ، فتأخذ أمى بتيابي ، حتى يؤذن الناس أو حتى يصبحوا » .

٢٤ — وفي السنة السادسة والثمانين بعد المائة ابتدأ رحلاته : ليتلقى الحديث عن الرجال ، فرحل إلى البصرة ، ورحل إلى الحجاز ، ورحل إلى اليمن ، ورحل إلى الكوفة ، وكان يود أن يرحل إلى الري ليستمع إلى جرير بن عبد الحميد ، ولم يكن قد رآه قبل في بغداد ، ولكن أقعده عن الرحلة إليه عظيم النفقة عليه في هذا السبيل . وتوالت رحلاته ليتلقى عن رجال الحديث شفهاً ، ويكتب من أفواههم ما يقولون .

رحل إلى البصرة خمس مرات ، كان يقيم فيها أحياناً ستة أشهر يتلقى عن بعض الشيوخ ، وأحياناً دون ذلك ، وأحياناً أكثر ، على حسب مقدار تلقيه من الشيخ الذي رحل إليه .

ورحل إلى الحجاز خمس مرات ، وأولها سنة ١٨٧ ، وفي هذه الرحلة قد التقى مع الشافعي ، وأخذ مع حديث أبي عيينه الذي كان مقصده إليه - فقه الشافعي ، وأصوله وبيانه لناسخ القرآن ومنسوخه ، وكان لقاءه بالشافعي بعد ذلك في بغداد عند

ما جاء الشافعي إليها ، وفي جمعبته فقهه ، وأصوله محررة مقررة ، وإن كان والى تنقيح فقهه وأصوله من بعد في مصر ، وكان أحمد قد نضج ، حتى لقد كان الشافعي يعول عليه في معرفة صحة الأحاديث أحياناً ، وكان يقول له إذا صح عندكم الحديث ، فاعلمني به ، أذهب إليه حجازياً أو شامياً أو عراقياً أو يمنياً^(١)

وقد ذكر ابن كثير تفصيل هذه الرحلات الحجازية ، فقال : « أول حجة حجها في سنة سبع وثمانين ومائة ، ثم سنة إحدى وتسعين ، ثم سنة ست وتسعين ، وجاور في سنة سبع وتسعين ، ثم حج سنة ثمان وتسعين ، وجاور إلى سنة تسع وتسعين . . قال الإمام أحمد « حججت خمس حجج ، منها ثلاث راجلاً ، وأنفقت في إحدى هذى الحجج ثلاثين درهماً ، وقد ضللت في بعضها عن الطريق وأنا ماش ، فجمعت أقول : يا عباد الله دلوني على الطريق ، حتى وقفت على الطريق »^(٢) . .

ولعله كان يحتسب في الحج ماشياً ، لأنه كلما عظمت المشقة مع الطاعة عظم الثواب أو لعل ذلك وهو الراجح القريب ، كان لعدم مقدرته على النفقة ، فكان يحج ماشياً ليقوم بالنسك ، وليجاور بيت الله الحرام ، وليطلب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلع على فتاوى أصحابه والتابعين لهم .

ولقد رحل إلى السكوفة ، ولقي المشقة في هذه الرحلة مع قربها من بغداد لأن مقامه بالسكوفة لم يكن ليناً رقيقاً ، بل كان ينسام في بيت تحت رأسه لبنة كما حكى هو عن نفسه ، وقال لو كان عندي تسعون درهماً كنت رخت إلى جرير بن عبد الحميد إلى الري ، وخرج بعض أصحابنا ، ولم يمكني الخروج لأنه لم يكن عندي شيء .

٢٥ — ويظهر أنه كان يستطيب المشقة في طلب الحديث ، لأن الشيء الذي يحى به يسر يكون قريب النسيان ، وكان فرق ذلك يحتسب نية الهجرة في سبيل الحديث لله سبحانه وتعالى .

وكان مما رسمه لنفسه أن يذهب إلى الحج سنة ثمان وتسعين ، وبعد الحج والمجاورة يذهب إلى عبد الرزاق بن همام بصنعاء اليمن ، وقد كاشف بهذه النية رفيقه

(١) تاريخ ابن كثير الجزء العاشر ص ٣٢٧ ، وقد كان هذا القول في الرحلة الثانية للشافعي إلى بغداد سنة ١٩٨

(٢) تاريخ ابن كثير جزء ١٠ ص ٣٢٦

في الحج ، وصاحبه في طلب العلم يحيى بن معين ، وقد توافقت رغبتهما في ذلك فدخلتا مكة ، وبينما هما يطوفان طواف الندوم إذا عبد الرزاق يطوف ، فرآه ابن معين ، وكان يعرفه ، فسلم عليه وقال له : هذا أحمد بن حنبل أخوك ، فقال حياه الله وثبته ، فإنه يلبني عنه كل جميل . قال نجىء إليك غدا ، إن شاء الله ، حتى نسمع ، ونكتب ، فلما انصرف قال أحمد معترضا لم أخذت على الشيخ موعدا !! قال لسمع منه ، قد أربحك الله مسيرة شهر ، ورجوع شهر ، والنفقة ، فقال أحمد ما كان الله يراني ، وقد نويت نية أن أفسدها بما تقول ، ثم مضى فسمع منه ، ثم مضى بعد الحج ، حتى سمع بصنعاء^(١) .

انظر إلى النية المحتسبة للهجرة في سبيل العلم ، قد لاحت له الفرصة التي تخفيه عن الهجرة ، فلم يهتزها ، وآثر أن يضرب في الأوض مهاجرا في طلب العلم ، ولم يرد أن يأخذه رخاء سهلا ، تسهله المصادفة ، وتقربه الفرصة ، خشية أن يتعوز ذلك فلا يركب في سبيله المركب الصعب ، ويحتمل العيش الخشن .

وقد تحقق ما احتسب فسافر إلى صنعاء ، وناله العيش الخشن ، والمركب الصعب ، إذ انقطعت به النفقة في الطريق فأكرى نفسه من بعض الجاهل إلى أن وافى صنعاء^(٢) ، وقد كانت رفقة تحاول أن تمد له يد المعونة ، فكان يردها حامدا لله فضل قوته التي تمكنه من أن يحصل على نفقاته .

ولما وصل إلى صنعاء حاول عبد الرزاق أن يعينه ، فقال له يا أبا عبد الله خذ هذا الشيء فانتفع به ، فإن أرضنا ليست بأرض متجر ، ولا مكعب ، ومد إليه بدنانير ، فقال أحمد أنا بخير ، ومكث على هذه المشقة سنتين استهان بهما ، إذ سمع أحاديث عن طريق الزهري ، وابن المسيب ما كان يعملها من قبل .

وقد استمر أحمد على الرحلة في طلب العلم ، حتى بعد أن اكتملت رجولته ، ونضج عليه ، ولقد كان وعد الشافعي عند آخر لقاء بينهما أن يلحقه إلى مصر .

(١) راجع ابن كثير ، وابن الجوزي .

(٢) حلية الأولياء .

ولكنه لم ينجز ما وعد ، فقد روى حرمله عن الشافعي أنه قال : « وعدني أحمد بن حنبل أن يقدم عل مصر ، فلم يقدم » قال ابن أبي حاتم يشبهه أن تكون خذعة ذات اليد منعتة أن يفي بالعدة^(١) .

٢٦ — طوف أحمد في الأقاليم الإسلامية طالبا للحديث ، لا يستكثر الكثير ، ولا يني عن السكد واللغوب ، يحمل حقائب كتبه على ظهره ، حتى لقد رآه بعض عارفيه في إحدى رحلاته ، وقد كثر مارواه من الأحاديث ، وحفظه وكتبه ، فقال له معترضا مستكثرا ما حفظ ، وما كتب ، وما روى : « مرة إلى السكوفة ١١ ومرة إلى البصرة ١١ إلى متى ١١ »^(٢) .

وقد استمر جده في طلب الحديث وروايته ، حتى بعد أن بلغ مبلغ الإمامة ، حتى لقد رآه له رجل من معاصريه ، والمحبرة في يده يكتب ، ويستمع ، فقال له يا أبا عبد الله ، أنت قد بلغت هذا المبلغ ، وأنت إمام المسلمين ، فقال « مع المحبرة إلى المتبرة » وكان رحمه الله تعالى يقول : أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر^(٣) .

وهكذا كان أحمد يسير على الحكمة المأثورة : « لا يزال الرجل عالما ما دام يطلب العلم ، فإذا ظن أنه علم فقد جهل » نطق بها عمله ، ونطق بها لسانه في تلك الكلمات التي نقلناها عنه .

٢٧ — وقبل أن نترك الكلام في هجرته في سبيل العلم نشير إلى أمرين ذوى صلة بحياته العلمية ، ومكانته من بعد ، (أحدهما) أن أحمد كان معنيا بتدوين كل ما يسمع من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآثار أصحابه ، غير معتمد على الحافظة وحدها ، وذلك لأن العصر كان عصر تدوين العلوم ، ففيه دون الفقه ، وعلوم اللغة ، وعلوم الحديث ، فما كان يكتب بالالتقاط بأذنه ، والحفظ بعقله ، بل كان يودع ما تلقاه بطون القراطيس ، كما أودعه قلبه الحافظ الواعي ، فكان يحفظ

(١) تاريخ ابن كثير .

(٢) ابن الجوزي ص ٢٨

(٣) ابن الجوزي ص ٣١

الأحاديث كلها ، واسنادها بطرائقها ، ولكنه إذا حدث لا يحدث إلا من كتاب ،
أى مما كتب ونقل ، خشية أن يضل عقله فينسى ، فيحرف كلم الرسول عن موضعه ،
وذلك من فرط التقوى ، وليست مسك بالعروة الوثقى التى كان عليها بعض السلف
الصالح الذين كانوا لا يحدثون خشية أن يشبه لهم ، كما ظنوا أنه يشبه لغيرهم .

والأخبار متضافرة بقوة حفظ أحمد ، وكثرة حفظه ، حتى إنه كان لا يدون
الاسناد أحيانا اعتمادا على حفظه لها ، ويدون الأحاديث دائما ، ويحفظها ، ولاسكن
لا ينطق بها إلا إذا قرأها مما كتب كما نوهنا ، حتى إنه لو سأله سائل عن حديث يحفظه
بحث عنه فى كتبه ، ثم قرأه مما كتب ، يروى أنه سأله رجل من أهل مرو عن حديث ،
فأمر ابنه عبد الله أن يحضر له كتاب الفوائد ليبحث عن الحديث فيه ، ولكنه
لم يجد ، فقام بنفسه ، وأحضر الكتاب ، وكان عدة أجزاء ، وقعد يطلب الحديث ،
وجاءه رجل يطلب الحديث وقال له تعلمنى مما علمك الله ، فدخل إلى منزله ، وأخرج
كتب الحديث ، وجعل يمل عليه ، ثم يقول للرجل اقرأ ما كتبت (١) .

فأحمد مع جودة حفظه ، وقوة واعيته ، كان لا يعتمد على ذاكرته ، بل يدون
كل ما يسمع ، وإذا أدلى بالحديث لا يدلى إلا بما يدون مع وعى تام ، وحفظ عظيم
- الأمر الثانى - الذى يجب التنبيه إليه قبل ترك الكلام فى طلبه العلم ، هو نوع العلم
الذى كان يطلبه ، ولاشك أن الذى كان يحتفى به ، ويهتم بطلبه هو الحديث وآثار الرسول
صلى الله عليه وسلم ، وفتاوى أصحابه وآثارهم العلمية ، وما كانوا يجتهدون من مسائل ،
فيحفظ كل ذلك ، ويتفهمه ، ويعرف مراميه ، وغاياته ، ويهتدى بذلك الهدى الكريم
٢٨ - ولكن هل معنى ذلك أن علم أحمد كان متمصرا على الرواية لا يعدوها

أى أنه كان لا يطلب غيرها ولا يتعرف سراها ، هذا هو موضع النظر ، وموضع
الدراسة ، وسيكون له مكان من الفحص فى صدر الكلام فى فقهه ، ولكن ونحن
الآن فى مقام ما كان يطلبه من العلم يجب أن نشير إشارة تكون تمهيدا ، لما سندينه
فى موضعه من القول إن شاء الله تعالى ، لقد نوهنا إلى أن أحمد توجه فى صدر شبابه

إلى تلقى الحديث عن أبي يوسف ، ويقول ابن كثير إنه كان في حدائمه يختلف إلى مجلس القاضي أبي يوسف ، ولا شك أن اختلافه إلى مجلس ذلك القاضي الفقيه الذي كان يفق ويقضى برأيه إذا لم يجد النص المسعف له في فتواه ، وفي قضائه ، لا بد أن يعطيه فكرة عن الاستنباط الفقهى ، وأنه إن تعلم الحديث لم يكن المحدث الذى يروى من غير أن يستنبط ، ويتحرى ، ويفهم النصوص وغاياتها المصلحية ومراميها ، وإن متابعتنا لما تلقاه من دروس ، ومن التقيهم من شيوخ يجعلنا نعتقد أنه كان معنياً باستنباط الأحكام من النصوص ، كما كان معنياً بالرواية والرواة ، لقد رأيناه فى مكة يلتقى بسفيان بن عيينه ، ويروى عنه ، ويكتب ما يستمع إليه منه ، ثم يلتقى بالشافعى ، وقد كان يدرس أصوله ، فتسترعى مناهجه الفقهية أحمد ، ويلتقى عليه تلك المناهج ، ويعجب بصاحبها إعجاباً يدفعه إلى أن يدعو رفقته فى رحلته للاستماع إليه .

فقد جاء فى معجم ياقوت عن الأبرى مانصه : « قال إسحاق بن راهويه كنا عند سفيان بن عيينة نكتب أحاديث عمرو بن دينار ، فجاءني أحمد بن حنبل ، فقال لى قم يا أبا يعقوب ، حتى أريك رجلاً لم تر عيناك مثله ، فقممت ، فأتى بى فناء زمزم ، فإذا هناك رجل عليه ثياب بيض ، تعلو وجهه السمرة ، حسن السميت ، حسن العقل وأجلسنى إلى جانبه ، فقال يا أبا عبد الله هذا إسحاق بن راهويه الحنظلى ، فرحب بى ، وحيانى ، فذاكرته ، وذاكرنى ، فانفجر لى منه علم أعجبنى ، فلما طال مجلسنا قلت قم بنا إلى الرجل . قال هذا هو الرجل ، فقلت يا سبحان الله ، قمت من عند رجل يقول حدثنا الزهرى ، فأتوهمت إلا أن تأتينا برجل مثل الزهرى أو قريب منه ، فأتيت بنا إلى هذا الشاب ، فقال لى يا أبا يعقوب اقتبس من الرجل ، فإنه مارأت عيناي مثله . »

فهذه القصة تدل دلالة لا شك فيها على أن أحمد كان يعجب بعلم الشافعى أيما إعجاب ، ولقد روى أن أحمد قال : « يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلاً يقيم لها أمر دينها ،

فكان عمر بن العزيز على رأس المائة ، وأرجو أن يكون الشافعي على راس المائة^(١) .

وأى شيء عند الشافعي كان يعجب به أحمد بن حنبل ؟ ليس هو الرواية ، فلم يكن في منزلة سفيان بن عيينة فيها ، ولم يكن في منزلة أحمد نفسه فيها ، وإنما الذي كان عند الشافعي ، وتلقاه عليه أحمد في مكة وبغداد هو التخريج الفقهي وأصول الاستنباط ومنهاج الاستنباط ، فهذا هو المعجب الذي استرعى ذهنه واستولى على فكره .

٢٩ — وإذا كان كذلك فيجب أن نقرر أن أحمد كان يطلب فيما يطلب علم الفقه والاستنباط مع الرواية وتلقى ذلك عن الشافعي وغيره ، بل إننا لننتهي إلى أن نقبل ما قيل عنه من أنه كان يحفظ كتب أهل الرأي ، ولكن لا يأخذ بها أو يعرض عنها ، ولم يلتفت إليها ، فقد قال تلميذه الخلال ، كان أحمد قد كتب كتب الرأي وحفظها ثم لم يلتفت إليها^(٢) .

فهذا النقل مقبول ، وهو يدل على أن أحمد كان معنيا في دراسته بعلم الفقه ، والرأي والقياس والاستنباط ، وإن كان لم يجد فيما كتب فقهاء الرأي العراقيين ، وهم أبو حنيفة وتلاميذه ما ينقع غلته ، ويشبع نهيمته ، أو يتفق مع نزعتة الأثرية ، وهو على أى حال كان معنيا بدراسة الفقه ، وإن لم يرض طريقة بعض الفقهاء .

٣٠ — وإذا كان أحمد كان يطلب الفقه وهو معنى بالحديث ، ورواية الآثار أبلغ عناية ، فلا بد أنه كان يدرس الحديث دراسة متفهم لمراميه ، وغاياته ومعانيه الفقهية ، لقد كان يطلب فتاوى الصحابة وتجد في مسنده لكل صحابي طائفة كبيرة من فقهه وفتاويه ، ففي مسند عمر طائفة من الفتاوى التي كان يفتي بها ذلك الفقيه العظيم ، وفي مسند علي ، وعثمان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهم — مقادير كبيرة من فتاويهم ، وأقضية من أولى الأمر منهم .

(١) راجع كتاب الشافعي للمؤلف من ٣٦ الطبعة الأولى ،

(٢) راجع ترجمة أحمد في تاريخ الذهب

ورواية تلك المجموعات مع العناية بدراسة الفقه منها ، يتكون منها الفقيه ، وبذلك يلتقى الحديث والفقه فى أحمد رضى الله عنه ، وبذلك يكون أحمد المحدث والفقيه معاً ، ولقد قال أبو حنيفة : « مثل من يطلب الحديث ، ولا يتفقه ، مثل الصيدلانى يجمع الأدوية ، ولا يعرف لأى داء هى ، حتى يحىء الطبيب ، هذا طالب الحديث لا يعرف وجه حديثه ، حتى يحىء الفقيه (١) »

وأحمد فى جمعه بين الفقه والحديث ، والإمامة فىهما كان كلاً ، بيد أن مالك كان أوضح فقهاً ، ولذلك فضل بيان سنده عند الكلام فى فقهه وحديثه ، ونوازن بينه وبين مالك فى ذلك .

٣ — وهل اطلع أحمد على غير الفقه والحديث وعلوم العربية ؟ يغلب على الظن أنه لم يطلب غير هذه العلوم ، فلم يطلب علم الكلام ، ولا العلوم الفلسفية التى كثرت ترجمتها فى حياته لأنه لم يجد شيئاً من العلم جديراً بالعناية غير الحديث والكتاب ، وما هو كالألة لفهم كل العلوم الدينية ، وهو العلوم العربية .

ولكن لا نستطيع أن نقول إن أحمد لم يطلع على بعض آراء الفرق المختلفة ، كالخوارج والشيعة ، والجهمية ، والمعتزلة ، وذيرهم ؛ بل إن الظن كل الظن أن يكون أحمد ألم بهذه الفرق ، وحياته وأخباره تشهد لذلك ، ولا تنافيه ، ذلك لأنه رحل إلى البصرة خمس مرات لطلب الحديث ، وكانت إقامته تمتد إلى ستة أشهر أو تزيد ، والبصرة كانت موطن الاعتزال ، وفى باديتها كان الخوارج يرابطون ويخبرون ، وكان الجهمية والمرجئة لهم طوائف فيها وفى الكوفة ، والعالم الباحث يصل إليه علم كثير من يجاورهم ويخالطهم ، ويتصل بهم ، وأحاديث أصحاب هذه الفرق كانت تسرى فى المجالس فى مساق الاستحسان فى بعضها ، ومساق الاستهجان فى بعضها ، فكان أهل العلم يلون بها مستكرين أو مستحسنين ، وأيضاً فإن أحمد قد كان يرمى أصحاب هذه الآراء بالابتداع ، وأنهم كانوا بعيدين عن منهاج السلف وما كان لمثل أحمد فى

حرصه وعمله أن يرمى أناساً بهذه الرمية من غير أن يعرف مقالتهن ، إذ الحكم على الشيء نفياً أو إثباتاً ، واستحساناً أو استهجاناً ، فرع عن تصوره ومعرفة .

وأيضاً فإن أحمد كان ينتقى الرجال الذين يروى عنهم حريصاً على أن يكونوا ممن لم يخوضوا في أمثال هذه الأقوال التي كان يراها بدعاً في الدين ، وكان ذلك بلا ريب يقتضى أن يكون ملها بعض الإلمام بها ، وعارفاً ببعض المعرفة لها .

من أجل هذه الاعتبارات كلها نظن ظناً قريباً من اليقين أن أحمد قد اطلع أو ألم بأقوال هذه الفرق ، وأن يكون قد سرى إليه بعض العلوم التي كانت في عصره ، وإن لم تتأثر بها نفسه ، وتشربها روحه ، إذ لم تتفق مع نزوعه ، ولم تتلاق مع ميوله ، وإن المتقدمات التي سقناها ، لا تدل على أنه كان يعلمها علماً كاملاً محيطاً بكل نواحيها مستخرقا لكل فنونها واتجاهاتها ، ولكنها تدل على معرفتها في الجملة ، وإن لم تكن معرفة استقصاء ، وإن ذلك وحده يكفي للحكم على اتصال العالم ببيئته ، وما كان يسود عصره من أفكار وآراء .

٣٢ — وإن ذلك الظن يرتفع إلى درجة اليقين عند ما نعلم أن أحمد كان يعلم الفارسية ، ويتكلم بها أحساناً ، إذا كان مخاطبها لا يحسن العربية ، ولا يستطيع الإفهام بها ، وليست معرفة ذلك مأخوذة بطريق التلصص ، بل مأخوذة بطريق الخبر الصحيح والنقل ، وإذا كانت صلة أحمد بمعاصريه أوجبت عليه أن يتعلم لساناً غير عربي ، فالأولى أن توجب عليه هذه الصلة أن يعرف العلوم التي كانت سائدة في عصره ، وإن كان لا يؤمن بها ، بل يزجها ، ويردها ، وينفر الناس منها .

والخبر بمعرفة أحمد بالفارسية صحيح ، فإنه يروى كما جاء في تاريخ الذهبي ، أنه قدم عليه من خراسان ابن خالته ونزل عنده ، ولما قدم له الطعام كان أحمد يسأله عن خراسان وأهلها ، وما بقي من ذوى أحمد بها ، وربما استعجم القول على الضيف ، فيكلمه أحمد بالفارسية .

ورأى هذا الخبر هو زهير حفيد أحمد رضى الله عنه ، ويذكر أنه شاهد ذلك

وعاينه ، وليس عندنا دليل على نفي الخبر ، وكل خبر راويه ثقة لا يرد إلا إذا قام الدليل على رده ، ولا دليل .

وليس معنى علم أحمد بالفارسية أنه استعان بها في فقهه ، ففقهه كما سنبين فقه أثرى نقلي ، ليس فيه اعتماد على الاستنباط الفلسفي ، ومسائله المروية عنه ليس فيها ما يدل على تأثر بفكر فارسي ، وإن كان فيها تأثر إقليمي أحيانا إذا كان أساس الاستنباط قياسا ، أو مصلحة ، أو سد ذريعة ، وليس الأساس نصا ، وإنه من المؤكد أن أحمد كان يأخذ بالقياس بقدر قليل ، وبالمصلحة على أساس أن الأصل في المصالح الإباحة ، حتى يقوم الدليل على البطلان بنص على عدم اعتبارها ، فإدام لم يقل هذا الدليل ، فالمصلحة على أصل إباحتها ، ولذلك فضل بيان في فقهه .

٣٣ — جلوسه للتحديث والفتوى : طلب أحمد الحديث من رجاله ، واستمع إليهم ، وكتب عنهم كل ما استمع ، واحتفظ بكل ما كتب بعناية الحرص ، واهتمام الراغب ، ولم يقتصر على ربوع بغداد ، ومساجدها يتلقى على علمائها ، وهم العدد الكثير ، وفيهم ذوو الحفظ ، والوعى والتقى ، بل طوف في الأقاليم الإسلامية فرحل إلى البصرة وإلى السكوفة ، وإلى الحجاز ، وما سمع بعالم إلا رحل إليه ، إلا إن حالت المنية دون اللقاء ، فلم يستطع الاستماع إلى مالك ، إذ مات عند ابتداءه في طلب الحديث ، والعود أخضر ، ولم يتمكن من الاستماع إلى ابن المبارك ، إذ أن آخر قدمة له ببغداد كانت في السنة التي اتجه فيها أحمد إلى طلب الحديث ، ولم يظفر بلقائه ، فمذ رحل إلى طرطوس ، ولم يعد بعدها إلى بغداد .

ولقد كان يحس بأن لقاء أولئك العلية من العلماء قد فاتته ، ولكن الله سبحانه وتعالى قد مكّنه من درء هذا النقص ، ولذلك كان يقول : « فأتى مالك ، فأخلف الله على سفيان بن عيينة ، وفاتني حماد بن زيد ، فأخلف الله على إسماعيل بن علية » (١) . طلب الحديث من كل مصادره التي كانت في عصره ، واتصل بعصره اتصالا

فكرياً ، وعلم أشتات العلوم التي لها صلة بالدين ، ألم ببعضها ، وتعمق في خيرها ،
وآن له أن ينتج بعد أن استحصده ، وجاء وقت إثمار تلك الشجرة بعد أن
استقامت سوقها ، وتهذلت فروعها ، وغاصت في بطون الأرض جذورها ، ودنا
جناها ، ورآه الناس ، واستطابوه .

٣٤ — عندئذ جلس أحمد للحديث والفتيا ، ولقد قال ابن الجوزي إن أحمد لم
ينصب نفسه للحديث والفتوى إلا بعد أن بلغ الأربعين ويحكي في ذلك « أن بعض
معاصريه جاء يطلب إليه الحديث سنة ٢٠٣ (ثلاث ومائتين) فأبى أن يحدثه ، فذهب
إلى عبد الرزاق بن همام باليمن ، ثم عاد إلى بغداد سنة ٢٠٤ (أربع ومائتين) ، فوجد
أحمد قد حدث ، واستوى الناس عليه (١) » .

لم يتخذ أحمد إذن مجلساً لدرسه في الحديث والفتاوى في الواقعات ، إلا بعد
أن بلغ أشده ، وبلغ أربعين سنة ، ولم يسمح لنفسه قبل بلوغه هذه السن أن يتخذ
له مجلساً للحديث والفتوى ، وقا سر ذلك ، وقد رأينا غيره من الفقهاء قد
اتخذوا هذه المجالس لهم قبل بلوغهم هذه السن ، فالشافعي اتخذ مجلسه في مكة
للدرس والإفتاء قبل هذه السن ، ومالك رضى الله عنه يرجح أنه جلس للدرس
والإفتاء قبل ذلك ؟ ولقد علل هو ذلك بأنه لم يستسغ الحديث ، وبعض شيوخه
حي ، فلقد ذكر أحد معاصريه أنه سأله أن يملى عليه حديثاً رواه عن عبد الرزاق ،
فامتنع لأن عبد الرزاق حي .

وعندى أن أحمد كان متبعاً للسنة لا يحيد عنها ، كان يفعل ما كان النبي صلى الله
عليه وسلم يفعله ، ولا يفعل ما لم يفعله ، حتى إنه كان إذا احتجم أعطى الحجام
ديناراً ، لأنه روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « احتجم وأعطى
أبا طيبة ديناراً » وأنه تسرى مع عدم رغبته الطبيعية فيه ، بل تسرى ، لأنه علم أن
النبي صلى الله عليه وسلم تسرى ، وقد استأذن زوجته في ذلك ، فأذنت له ، لتعينه
على الاتباع .

وإذا كان أحمد حريصاً على الاتباع في هذه الأمور التي تعد من صغار الأعمال فأولى أن يكون متبعاً في ذلك الأمر الجليل الذي لا يوجد عمل أخطر منه في نظر أحمد وغيره، وهو عمل النبيين صلوات الله وسلامه عليهم، ألا وهو الدرس والتحديث والافتاء، لقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم في الأربعين، وبلغ رسالة ربه في هذه السن، ولم يرسله الله رحمة للناس إلا فيها، فلا بد أن أحمد المتبع المقتدى استحياءً أن يجلس للفتيا والحديث إلا بعد أن يبلغ الأربعين، وبعد أن تكامل نموه في الجسم والروح. هذا ما نراه تلميلاً لآل مناعه عن الجلوس للحديث والفتوى قبل أن يبلغ هذه السن، وهو تلميل متلبس من جملة أحواله، وإن لم نجد نصاً عليه فيما تحت أيدينا من مصادر.

٣٥ — ولسنا نستطيع أن نقرر أن أحمد قد استفتى فيما يعلم فيه أثراً وامتنع عن الفتوى قبل هذه السن، أو سئل حديثاً وامتنع عن ذكره، بل إننا نقطع بنقيض ذلك، لأنه إن امتنع كان كاتماً للعلم؛ حائلاً دون نشر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن كتمان العلم، والدين يوجب إفشاء أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشرها. ولقد شهدت بعض الأخبار بصدق ذلك، فقه رؤى يفق في مسجد الخيف، سنة ١٩٨ أي وهو في الرابعة والثلاثين.

وإن الجمع بين هذا الخبر وما قررناه من أنه لم يجلس للتحديث والفتيا إلا بعد أن يبلغ الأربعين - يكون بأن الفتيا عند الضرورة أمر لا يد منه تجب على كل من يعلم موضع الفتوى مهما يكن، أما الجلوس للدرس يقصده أهل العلم لطلبه، والأخذ عنه، والرجوع إليه، فذلك ما لم يتصد له أحمد إلا بعد الأربعين، عند ما وجد المكان شاغراً ببغداد فعلاًه، وعند ما وجد أن الاتباع ألا يجلس للتحديث والافتاء إلا بعد بلوغ سن الرسالة والله أعلم.

٣٥ — لم يجلس أحمد للدرس والافتاء إلا بعد أن اكتمل، كما بينا، وسرى بين الناس حديث صلاحه وتقواه وورعه وزهده وعفته عما في أيدي الناس،

وعكوفه على الحديث، يسير لطلبه، ويركب الصعب والزبول، حتى يصل إلى عالم يتلقى عنه. ذلك لأن الناس (ولو كانوا غير فضلاء) يشيع فهم ذكر أهل الفضل، وينوّهون بهم، وهم دونهم، فتد تسأرت الركبان بذكر أحمد وفضله ودينه قبل أن يجلس للحديث والأفتاء، حتى إنه عندما ذهب إلى عبد الرزاق بصنعاء كان قد وصل إليه وزهده وتقواه وورعه، وهديه وعلبه وحفظه.

ويظهر أنه ما جلس للمدرس والأفتاء إلا بعد أن قصده الناس للسؤال عن الحديث، والفقه، فاضطر لأن يجلس لإجاباتهم في المسجد، وكانت حياته بعد ذلك تنمى هذه الشهرة وتقويها، فالتد عاين الناس فضله ووجدوا تنفذه عما عند الولاية والأمر، ومراعاته لحرمة المسلمين، ثم نزلت المحنة التي صهرت نفسه، وبيّنت مقدار جلده وصبره، وتوالت النوازل، فزاده ذلك علواً ورفعة، وزادت مكاتته عند الله والناس، ثم كان تواضعه، ورغبته الواضحة في الخمول، وفراره من التنويه، فعرفه الناس، وأذاعوا ذكره، فكان يفر من الشرف، فيتبعه الشرف، كما قال خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق رضى الله عنه.

٣٦ — وإذا كان أحمد قد ذاع ذكره في الآفاق الإسلامية قبل أن يجلس للمدرس والأفتاء، فلا بد أن يكون الازدحام على درسه شديداً، ولقد ذكر بعض الرواة أن عدة من كانوا يستمعون إلى درسه نحو خمسة آلاف، وأنه كان يكتب منهم نحو خمسمائة،^(١) ولا بد أن المكان الذي يسع هؤلاء هو المسجد الجامع ببغداد دون سواه، فلا بد أن درس أحمد كان فيه، ولسنا نسلم بأن ذلك العدد هو الأحصاء الدقيق الصحيح لمن كانوا يحضرون درسه، ولكن ذكر العدد يدل على الضخامة، ولو نزل العدد إلى النصف بل إلى الخمس لكان كثيراً، ولدل على مكانة أحمد عند البغداديين، وإنها لمكانة عظيمة، وإن كثرة هؤلاء الذين كانوا يحضرون درسه في المسجد كانت سبباً في كثرة رواية فقهه وحديثه، كما سنشير إلى ذلك عند الكلام في فقهه.

ويجب أن نذكر في هذا المقام أنه لم يكن كل الذين يحضرون راغبين في علم أحمد ، بل منهم من كان يتيمن به ، ومنهم من كان يريد أن يتعظ به ، ومنهم من كان يجيء ، ليعرف حال ذلك الرجل الغريب ، وينظر إلى هديه وخلقه وأدبه ، ولقد جاء في المناقب لابن الجوزي عن بعض معاصر به أنه قال : « اختلفت إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل اثنتي عشرة سنة ، وهو يقرأ المسند على أولاده فما كتبت منه حديثاً واحداً ، وإنما كنت أميل إلى هديه وأخلاقه وآدابه » (١) .

٣٧ — ويظهر أنه كان له مجلسان للدرس والتحديث (أحدهما) في منزله يحدث فيه خاصة تلاميذه وأولاده ، والثاني في المسجد يحضر إليه العامة والتلاميذ ، وقد رأينا كيف كان يذكر بعضهم أن درسه يبلغ من يحضره خمسة آلاف ، وأن خمسمائة فقط هم الذين يكتبون أي نحو عشر الحاضرين الذين ينقلون عنه الحديث ، ويروونه ، وهم الخاصة من تلاميذه والمستمعين إليه ، وخاصة الخاصة من تلاميذه هم الذين كانوا يذهبون إلى بيته ويتلقون عنه مع أولاده وأهله .

وقد كان وقت درسه في المسجد بعد العصر كما جاء في تاريخ الذهبي ، ولعله كان يختار ذلك الوقت ؛ لأنه قبل عتمة الليل ، وبعد وهج النهار ، ولأنه وقت راحة لأكثر الناس ، فيتيسر لهم أن يحضروا ؛ ولأنه وقت صفاء النفس ، وفراغها من مشاغل الحياة ، واضطرابها ، فيكون الحديث أو الأفتاء ، والنفس مستجيبة مقبلة ، لا كيلة مدبرة ، والدرس عند اقبال النفس أعمق أثراً فيها ، وأكثر شيوعاً في نواحيها .

٣٨ — ويلاحظ في درس أحمد ثلاثة أمور جعلت له أثراً في النفوس جيداً ، وهذه الأمور هي :

أولاً : أنه كان يسود مجلسه الوقار والسدينة مع تواضع واطمئنان نفسي ، ولم يكن الوقار في مجلس عليه وحده .

كان في كل مجالسه ، لا يمزح ولا يلهو ، لأن اللهو في جملته باطل ، ولأن كل مزحة مجة من العقل ، وقد علم مخالطوه منه ذلك ، فكانوا لا يمزحون في حضرته قط .

في مجلس علم أو في غير مجلس علم ، بل إن شيوخه علموا ذلك ، فكانوا هم أيضاً لا يمزحون في حضرته ، فقد روى ابن نعيم عن خاتم بن سالم أنه قال « كننا في مجلس يزيد بن هارون ، فمزح يزيد مع مستمليه ، فتنحج أحمد بن حنبل ، فضرب بيده على جبينه ، وقال : ألا أعلمه ، وفي أن أحمد هنا ، حتى لا أمزح » .

كانت روح الجد والسكينة هي التي تظل مجلسه : لأن ذلك هو الذي يتفق مع رواية السنة النبوية الشريفة ، وآثار الرسول الكريم ، وفتاوى السلف الصالح رضوان الله تعالى عنهم ، ومن شأن السكينة أن تجعل للقول مكانه من القلب ، ومنزله من النفس ، وإنه وإن كانت الدعاة تذهب بالملال ، كثرتها تذهب بالروعة ورواء العلم ، وقد تجنب أحمد المزاح جملة ، إذ رواية السنة عبادة عنده ، ولا مزح في وقت العبادة ، بل المزح ينافيها ، ولا خير فيمن يمل من العبادة برواية علم الرسول ، وخير ما وصل إليه أصحابه .

٣٩ — ثاني الأمور ، التي كانت تلاحظ في درسه أنه كان لا يلتقي الدرس من غير طلب ، بل يسأل عن الأحاديث المروية في موضوع ، فيستحضر الكتب التي دون فيها تلك الأحاديث ، فهو أولاً ما كان يقول حتى يطلب منه ، وثانياً كان إذا قال حديثاً نبراً لا يقوله إلا من كتاب حرصاً على جودة النقل ، وإبعاداً لمظنة الخطأ ما أمكن ، كما بينا ، وفي الأحوال النادرة جداً كان يقول الحديث من غير رجوع إلى كتاب ، حتى إنهم أحصوا المرات التي قال فيها الحديث من غير كتاب في مدى تحديثه ، فكانت عدتها لا تتجاوز مائة حديث في حياة مديدة في الرواية والنقل مكث فيها يفتي ويحدث ما يقارب الأربعين عاماً .

وقد جاء في تاريخ الذهبي عن المروذي صاحب أحمد في وصف مجالسه « لم أر الفقير في مجلس أعز منه في مجلس أبي عبد الله ، كان مائلاً إليهم ، مقتصرأً عن أهل

(١) راجع ترجمة الذهبي لأحمد بن حنبل التي نقلت في مقدمات طبع مكتبة المعارف لمسند أحمد بتحقيق الاستاذ الشيخ أحمد شاكر .

الدنيا ، وكان فيه حلم ، ولم يكن بالعجول ، بل كان كثير التواضع ، تعاود السكينة والوقار ، إذا جلس مجلسه بعد العصر ، لا يتكلم حتى يسأل ^(١) .

ترى من هذا النقل كيف كان لا يقول إلا إذا سئل ، حتى يكون البيان وقت الطلب ، ويظهر أنه لما كتب مسنده كان يمليه على أولاده وخاصة تلاميذه من غير طلب ، بخلاف ما كان من الشأن لغيره ، فإنه ما كان يذكر حديثاً حتى يسأل عنه .
ويروى ابن الجوزي عن أبي حاتم الرازي ، فيقول : « أتيت أحمد بن حنبل في أول ما التقيت به في سنة ثلاث عشرة ومائتين ، وإذاهو قد أخرج معه إلى الصلاة ، كتاب الأشربة ، وكتاب الايمان ، فصلى ، فلم يسأله أحد ، فردّه إلى بيته ، وأتيت يوم آخر ، فإذا هو قد أخرج السكتابين ، فظننت أنه يحتسب في إخراج ذلك ؛ لأن كتاب الايمان أصل الدين ، وكتاب الأشربة يفرق الناس عن الشر ، فإن أصل كل شيء من السكر ^(٢) » .

وهذا النص يدل على أن أحمد كان يخرج إلى المسجد ومعه كتب يظن الناس يسألونه عن موضوع ما فيها من حديث ، فهو يخرج كتاب الايمان من الأحاديث لمظنة أن يسأله الناس عن أحاديث الايمان في وقت قد اضطربت فيه العقائد ، وتعددت أسباب الزيغ ، ويخرج أيضاً كتاب الأشربة في وقت كثرت فيه الأشربة المحرمة ، وتعددت أنواعها ، وخشى فيه أهل التقى أن يقعوا في المحرم من حيث لا يشعرون ، ويقعوا في خبيث الشراب ، من حيث يظنونه من طيبات ما أحل الله سبحانه .
وهذه الأخبار كلها تنبئ عن أن أحمد رضى الله عنه ما كان يذكر حديثاً حتى يسأل عن موضوعه ، وأنه لا يجيب إلا عن كتاب منقول ، وإن كان الحافظ الشيبه الثقة ، بل الذي يجمع الرواة على أنه لم يكن في عصره أحفظ منه ، وأثبت ، وأوثق ولقد قال ولده عبد الله « ما رأيت أبى حدث من حفظه من غير كتاب ، إلا بأقل من مائة حديث ^(٢) » .

(١) حلية الأولياء ج ٩ ص ١٦٥

(٢) غذاء الألباب ص ٢٥٩

ولقد كان يبحث تلاميذه وأصحابه على ذلك ، وبيناهم أن يثبتوا من غير كتاب خشية أن يضادوا ، يروى أن علي بن المديني كان لا يحدث إلا من كتاب ، وقال : « إن سيدي أحمد بن حنبل أمرني ألا أحدث إلا من كتاب » .
وابن المديني الذي يحكى عن الإمام أحمد ذلك الأمر هو الذي يقول فيه : « ليس في أصحابنا أحفظ من أبي عبد الله » .

٤. — وثالث الأمور التي كانت تلاحظ على مجالس أحمد بن حنبل في دروسه أنها كانت من حيث موضوعها قسمين : (أحدهما) رواية الحديث ونقله ، وهذه يملأها على تلاميذه من كتاب ، كما رأيت ، ولا يعتمد على حفظه إلا نادراً .
(وثانيهما) فتاوية الفقهية التي كان يضطر إلى استنباطها ، وهذه لا يسمح لتلاميذه أن يدونوها ، ولا يسمح لهم أن ينقلوها عنه ، إذ أنه ما كان يستجيز التدوين إلا لأحاديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ويرى أن علم الدين وحده هو علم الكتاب والسنة ، وأن من البدع تدوين آراء الناس في الدين بجوار كتاب الله وسنة رسوله ، وكان أبغض الأشياء إليه أن يرى كتاباً قد دونت فيه فتوى له رضى الله عنه ، وكان يكره من أصحابه أن ينقلوا عنه فتاويه ، وربما أنكر نسبتها إليه ، لأنه لم يحفظ ما قال ، ولم يتصد إلى حفظه ، لأنه ذلك غير جائز في نظره .

لقد بلغه أن بعض تلاميذه روى عنه مسائل ، ونشرها بخراسان ، فقال : أشهدوا أني رجعت عن ذلك كله » وجاء إليه رجل خراساني بكتب ، فنظر في كتاب من بينها ، فوقع نظره ، فوجد كلامه ، فغضب ، ورمى الكتاب من يديه .

ولم يكن ذلك بالنسبة لآرائه هو فقط ، بل بالنسبة لفقه غيره ، فلقد سأله رجل هل يكتب كتب الرأي ، فقال : (لا) : قال السائل ، فابن المبارك كتبها ، قال أحمد : « ابن المبارك لم ينزل من السماء ، إنما أمرنا أن نأخذ العلم من فوق ^(١) » وينهى المحدثين عن أن يكتبوا كتب الشافعي ، وأبي ثور ، مع أن الشافعي منزلته منه بمنزلة الأستاذ ، وله عنده المكان المسكين ، ولكن أحمد الذي كان ينهى ذلك النهى جمعت كل الروايات

(١) راجع هذه النقول في المناقب لابن الجوزي ص ١٩٢ — ١٩٣

عنه في مجلدات ضخام ، وكان للناس فيها نظار نرجئه إلى الكلام في رواية فقهه .

٤١ — وقبل أن نترك الكلام في درس أحمد ، ونحن نسرّد مجرى حياته ، يجدر بنا أن نشير إلى أمر ذي بال هنا وهو أن أحمد رضى الله عنه كان يحيا ، وهو يطلب الحديث والفقه ، ثم وهو يلتقى الحديث والفقه إذا سئل عنهما - حياة سلفية خالصة ، تجرد فيها من ملابسات العصر ، ومناحراته ، وما يجرى من منازلات فكرية ، وسياسية أو إجتماعية أو حربية ، واختار أن يخلق بروحه في جو الصمت والصفوة من التابعين ، ومن جاء بعدهم ، بمن نهج نهجهم ، واختار سبيلهم ، لذلك كان عليه وفقهه هو علم السنة وفقهها ، لا يخوض في أمر ، إلا إذ علم أن الصحابة خاضوا فيه ، فإن علم ذلك اتبع رأيهم ، ونفى غيره ، وإن لم يعلم أن الصحابة خاضوا في ذلك الأمر كف عنه ، واستعصم متوقفاً حذراً ، فلا يتفقو ما ليس له به علم ، لأنه يعتقد أن الخروج عن تلك الجادة زيغ عن منهاج السلف ، وإلحاد في دين الله سبحانه ، وتعالى ، لا يتكلف التعمق في مسائل عقلية قد تكدرن متاهات للعقل البشرى ، وإن خرج من وعثائها سالماً ، فقد جهد نفسه غير طائل ، وشغل فكره في غير جدوى ، ولها عن ذكر الله ، وقسا قلبه ، وصد نفسه عن سبيل العبادة . لم يشغل أحمد نفسه بغير علم السلف ، والحياة الروحية في جنة هؤلاء السلف ، ولم يدرس شيئاً غير ما يتصل بهم .

٤٢ — ولماذا سلك أحمد ذلك المسلك ؟ من أجل الأجابة عن هذا السؤال يجب أن نمس عصره ببعض البيان مسأ رقيقاً مرجئين بيان ذلك العصر بيانا مناسباً إلى موضعه من بحثنا .

إن عصر أحمد قد غلب فيه العنصر الفارسي والعنصر العربي ، وسادت الحضارة الفارسية ، أو غير العربية بشكل عام - المجتمع الاسلامي ، وماجت المدن الاسلامية بعناصر مختلفة من أمم متباينة الأرومة ، وترجمت العلوم الفلسفية من اللغة السريانية واليونانية وغيرهما ، وامتزجت مدنيات ، وتصادمت حضارات .

ومن طبيعة العصر الذي تكثرت فيه المنازعات ، ويضطرم باحتكاك المدنيات المختلفة

بعضها ببعض أن تظهر فيه آراء منحرفة ، وأخلاق منحرفة ، ويكثر الشذوذ الفكري ، والشذوذ الاجتماعي ، حتى يصبح الشاذ هو الكثير ، والغريب هو المألوف .

ظهرت كل هذه الأمور في العصر العباسي من وقت أن استقرت الأمور لهذه الدولة التي قامت على السيوف الفارسية ، ولكن المنصور حكمها بشكائم قوية ، فلم تستمكن ، فلما جاء المهدي ظهرت فتن هائلة أثارتها حملة السيف ، ولكنه استطاع أن يقمعها ، وأراد الرشيد أن يغالب هذه المنازع ، وقد تحولت إلى المجتمع الإسلامي تسرى فيه من غير حرب تحمل السيف ، فأدنى إليه الفقهاء والمحدثين ، وكان لهم في دولته مكان الصدارة ، ولكن جاء المأمون وما تم له الأمر على أخيه الأمين إلا بنصرة الفرس - فقويت العناصر غير العربية ، واشتدت وكان للفلسفة والعلوم الجديدة من المأمون أعظم ناصر .

كثر الشطار والمنسدون ، وكثر المخربون في المجتمع الإسلامي من وراء ستار وكثرت الآراء الغربية على العقل الإسلامي ، فنهج السلفيون منهاجين مختلفين ، فريق نهج منهاج المقاومة والمغالبة ، واختار أحمد أن يعيش في وسط تلك المنازع غريباً عنها ، محلّقاً في سماء السلف الصالح بروحه ، حتى لقد وصفه بعض معاصريه بأنه تابعي كبير تخلف به الزمن .

٤٣ — إن أحمد رضي الله عنه قاطع الذين يخوضون في غير ما أثر عن السلف مقاطعة تامة ، حتى إنه ما كان يستجيز لنفسه الرد عليهم ، وكان على ذلك إلى أن مات ولقد كتب رجل إليه يسأله عن مناظرة أهل الكلام ، فكتب إليه أحمد رضي الله عنه الكتاب التالي :

« أحسن الله عاقبتك ، الذي كنا نسمع ، وأدركنا عليه من أدركنا ، أنهم كانوا يكرهون الكلام ، والجلوس مع أهل الزيغ ، وإنما الأمر في التسليم والانتهاز إلى ما في كتاب الله ، لا تعد ذلك ، ولم يزل الناس يكرهون كل محدث ، من وضع كتاب ، وجلوس مع مبتدع ، ليردوا عليه بعض ما يلبس عليه في دينه » (١) .

لقد كان أحمد ينهى الناس عن علم الكلام ، وهو العلم الذى يتكلم فى العقائد بطرق فلسفية ، فكان يذم أهل الكلام ، وإن أصابوا ، وينهى عن تدقيق النظر فى أسماء الله تعالى وصفاته .

وما كان ذلك النهى ، إلا لأن هذا مسلك لم يسلكه السلف ، ولأنه إن أدى إلى الصواب مرة قد يؤدى إلى الضلال ، وقد يتيه العقل به فى متاهات لا جدوى عند النجاة منها ، وفيها الضلال البعيد إن لم تكن النجاة .

٤٤ — انصرف أحمد إلى دراساته انصرف المؤمن المطمئن ، الذى يعيش فى جو المؤمنين ، ويرفع نفسه إلى عصر الصحابة والتابعين ، ويدعو تلاميذه إلى أن ينهجوا نهجه ، يدعوهم بالقول ، ويدعوهم بالفعل ، لقد كان هو مثالا صالحا للرجل السلفى المتقى ، وكان فى ذلك نهج منهاج من عاشوا فى مثل ما عاش ، كسفيان الثوري وعبد الله بن المبارك ، وغيرهم ممن سنتكلم عنهم فى موضعهم من بحثنا إن شاء الله تعالى :

ولقد كان يحق لذلك الورع التقي أن يعيش هادئا مطمئنا قارآ فى بيته ومسجده لا يزججه مزعج ، ولكن قد قدر لذلك الخدير الساكن المطمئن أن تلقى فيه الأحجار ، فتفسد عليه اطمئنانه ، وترججه فى اعتقاده وإيمانه ، قد قدر لذلك الإمام الجليل أن يمتحن أبلغ المحنة ، وأن يكرث فى جسمه ، وأن يهن اعتقاده هزا عنيفاً ، وأن يكوى جلده بالسياط ، وأن يساق مقيداً مغلولاً يشقله الحديد ، لا لشيء إلا لأنه لا يخوض فى أمر مما كان يخوض فيه المأمون والذين ارتضاهم صفوة له من العلماء ، وإنا نفصل الكلام فى هذه المحنة فيما يلى :

المحنة وأسبابها وأدوارها

٤٥ — سبب هذه المحنة دعرة المأمون للفقهاء والمحدثين أن يقولوا مقالته في خلق القرآن ، فيقولوا إن القرآن مخلوق محدث ، كما يقول أصحابه من المعتزلة الذين اختار منهم وزراءه ، وصفوته الذين جعلهم بمنزلة نفسه ، وجعل منهم شعارة ودثاره . ولا نفصل هنا رأى أحمد في هذه القضية ، لأن رأيه قد اختلف فيه العلماء من بعده ، فلنرجئه إلى موضعه من دراسة آرائه ، وإنما الذى يتأكد العلماء أن أحمد لم يوافق المأمون فى رأيه ، ولم ينطق بمثل مقالته ، وأنه نزل به الأذى الشديد لذلك ، وابتدأ فى عصر المأمون ، وتوالى فى عصر المعتصم والواثق بوصية من المأمون ، واتباعاً لمسلكه ، فلنكتف فى هذا الموضع ببيان هذه المحنة ، ثم بمخاطبة أحمد للرياسة والخلفاء ، لأننا الآن فى صدد سرد أدوار حياته .

٤٦ — وإذا كان سبب المحنة هو أن المأمون أراد أن يحمل أحمد على أن يقول مقالته فى خلق القرآن ، فلننقل بعض التفصيل قول المأمون هذا ، ومن سبقه إليه من العلماء ، أو أصحاب الفرق .

يروى أنه أول من قال إن القرآن مخلوق الجعد بن درهم فى العصر الأموى ، فقتله خالد بن عبد الله القسرى يوم الأضحى بالكوفة ، وقد أتى به مشدوداً فى الوثاق عند صلاة العيد ، فصلى خالد ، وخطب ، ثم قال فى آخر خطبته : « اذهبوا ، وضحوا بضحاياكم ، تقبل ، فإنى أريد أن أضحي بالجعد بن درهم ، فإنه يقول ما كلف الله موسى تكليماً ، ولا اتخذ الله إبراهيم خليلاً ، تعالى الله عما يقول علواً كبيراً (١) » ثم نزل وقتله .

وقال مثل ذلك القول الجهم بن صفوان ، وقد نفي صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى ، تنزيهاً له عن الحوادث وصفاتها ، وحكم لذلك بأن القرآن مخلوق ، وليس بقديم .

ولما جاء المعتزلة ، ونفروا صفات المعاني ، ثم بالنوا ، فأنسكروا أن يكون الله سبحانه وتعالى متكلماً ، وما ورد في القرآن من أن الله سبحانه وتعالى كلم موسى تكليماً أولوه بأنه سبحانه وتعالى خالق الكلام في الشجرة ، فهم لا يصنفون الله بأنه متكلماً ، ولكنهم يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى يخلق الكلام ، كما يخلق كل شيء ، وعلى هذا الاعتقاد بنوا دعواهم أن القرآن مخلوق لله سبحانه وتعالى .

ولقد خاض المعتزلة في حديث خلق القرآن خوفاً شديداً في العصر العباسي ، وشاركهم بعض قليل من الفقهاء ، فقد كان بشر بن غياث المريسي من المصنفين على ذلك القول ، وقد نهاه أبو يوسف أستاذه وصاحب أبي حنيفة فلم يذنه ، فطرده من مجلسه .

ولقد ابتدأ خوض المعتزلة يشهد في عهد الرشيد ، فأخذوا يدعون الناس إلى ذلك ، ولكن الرشيد لم يكن ممن يشجعون الخوض في العقائد ، والجدل فيها على ضوء أقوال الفلاسفة ، ولذلك لم يشجع المعتزلة على ذلك الخوض ، بل يروى أنه حبس طائفة من المجادلين من هؤلاء المعتزلة ، ولما بلغته مقالة بشر بن غياث قال : « إن أظفرني الله به أقتله » فظل بشر مستخفياً طول خلافة الرشيد .

٤٧ — فلما جاء المأمون أحاط به المعتزلة ، وكان جل حاشيته من رجالهم ، وأدناهم هو إليه ، وقربهم زلفى نحوه ، وأكرمهم أبلغ الإكرام ، حتى يروى أنه كان إذا دخل عليه أبو هشام الفوطي من أئمة المعتزلة تحرك له ، حتى يكاد يقوم ، ولم يكن يفعل ذلك مع أحد من الناس .

والسبب في ميل المأمون للمعتزلة ذلك الميل أنه كان تلميذاً لأبي الهذيل العلاف في الأديان والمقالات ، وأبو الهذيل من رؤوس المعتزلة .

ولما عقد المأمون المجالس للمناظرات والمناقشات في المنال والتمحل كانوا الفرسان السابقين في الحلبة ، والبارزين على الخصوم ، لما اختصوا به من دراسات عقلية واسعة ، فكان لذلك لهم الأثر الكبير في نفس المأمون ، يجتني منهم من يشاء

مخلوق محدث ، ولم يره ، والامتناع عن توقيعها عنده ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسائلهم ، والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين ، والاخلاص للتوحيد (١) »

وترى من هذا أنه لم توضع عقوبة لمن لم يعتقد هذه العقيدة سوى الحرمان من مناصب الدولة ، أو عدم سماع شهادته إن كان شاهداً ولم يعد كتابه الثاني ذلك ، فأحضر إسحاق بن إبراهيم القضاة ، واختبرهم ، ولم يكتب بذلك بل أحضر المحدثين أيضاً ، وكل من تصدى للفتوى والتعليم والأرشاد ، وامتنحهم ، وأرسل إجاباتهم عن مسأله في خلق القرآن إلى المأمون (٢) فأرسل هذا كتاباً يبين نسخ هذه الأجابات في نظره ، ويخرج المجيبين ، ويسألهم بقارص القول وعنيف الكلام ، ثم ذكر في هذا الكتاب عتوبات لمن لم يقل مقالته ، إذ أمر بحمل من لم يقل إليه مراثياً ، وقال : « من لم يرجع عن شركه بمن سميت لأمر المؤمنين في كتابك ، وذكره أمير المؤمنين لك ، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا ، ولم يقل إن القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد ، وإبراهيم بن المهدي (٣) ، فأحلمهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين ، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في طريقهم ، حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين ، وتسليمهم إلى من يؤمن بتسليمهم ، لينصهم أمير المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله .

٤٩ - وترى من هذا كيف ترقى من عقوبة الحرمان من المناصب ، وقبول الشهادة إلى الأنداز بعقوبة الأعدام .

وقد سارع إسحاق بن إبراهيم إلى تنفيذ رغبته ، فأحضر المحدثين ، والفقهاء ، والمفتين ، وفيهم أحمد بن حنبل ، وأنذرهم بالعقوبة الصارمة ، والعذاب العتيد ،

(١) تاريخ الطبري .

(٢) سننك لك قريباً هذه الأجابات ، ورد المأمون عليها .

(٣) قد خصهما في كتابه بالقتل إن لم يقولوا .

إن لم يقرروا بما يطلب منهم ، وينطقوا بما سألوا أن ينطقوا به ، ويحكموا بالحكم الذى ارتأه المؤمنون من غير تردد ، أو مراجعة ، فنطقوا جميعاً بما طلب منهم ، وأعلنوا اعتناق ذلك المذهب .

ولكن أربعة ربط الله على قلوبهم ، واطمأنوا إلى حكم الله ، وآثروا الباقية على الفانية ، لم يرضوا بالدنية فيما اعتقدوه فأصروا على موقفهم إصراراً جريئاً ، وهم أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، والقواريرى ، وسجادة ، فشذبوا فى الوثاق ، وكتبوا بالحديد ، وباتوا ليلتهم مصنفين فى الأغلال ، فلما كان الفد أجاب سجادة اسحاق فيما يدعوه إليه ، فخلوا عنه وفكوا قيوده ، واستمر الباقون على حالهم .

وفى اليوم التالى أعيد السؤال عليهم ، وطلب الجواب إليهم ، فخرت نفس القواريرى ، وأجابهم إلى ما طلبوا ، ففكوا قيوده وبقي اثنان ، الله معهما ، فسيقا فى الحديد ، ليلتهما بالمؤمنون فى طرسوس ، وقد استشهد ابن نوح فى الطريق والذين أجابوا طلب منهم أن يواجهوا المؤمنون أحراراً وتدموا كفلاء بأنفسهم ، ليوافوه بطرسوس كأخويهم .

٥٠ - وبيناهم فى الطريق نعى الناعى المؤمن ، ولكنه عفا الله لم يودع هذه الدنيا من خير أن يوصى أخاه المعتصم بالاستمسك بمذهبه فى القرآن ، ودعوة الناس إليه بقوة السلطان ، وكأنه فهم أن تلك الفكرة التى استحوذت على رأسه وبين واجب الاتباع ، لا يبرأ عنقه منها من خير أن يوصى خلفه به ، فوصاه .

فقد جاء فى مطلع وصيته : « هذا ما أشهد عليه عبدالله بن هرون الرشيد أمير المؤمنين بحضرة من حضره ، أشهدهم جميعاً على نفسه أنه يشهد هو ، ومن حضره أن الله عز وجل وحده ، لا شريك له فى ملكه ، ولا مدبر لأمره غيره ، وأنه خالق ، وما سواه مخلوق ولا يخلو القرآن أن يكون شيئاً له مثل كل شيء ، ولا شيء مثله تبارك وتعالى وجاء فى وسط الوصية : « يا أبا اسحاق ، ادن منى ، واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك فى خلق القرآن » .

ول هذه الوصية لم تنقطع المحنة بوفاة المؤمن ، بل اتسع نطاقها ، وزادت ويلاتها

وكانت شراً مستطيراً على المتوقفين من الزهاد والعلماء ، والفقهاء ، والمحدثين ، وعلى رأسهم أحمد بن حنبل .

٥١ — فقد بلغ البلاء أشده ، والمحنة أقصاها في عهد المعتصم ، ثم في عهد الواثق ، وقبل أن نبين ذلك ننقل المراسلات التي جرت بين المأمون ، ونائبه في بغداد ، ففيها حجته فيما يقول ، ويدعو إليه ، وفيها إجابة أحمد ثم تهديد المأمون وها هي ذي السكتب ، كما جاءت في تاريخ الطبري .

كتاب المأمون الأول

إلى اسحاق بن ابراهيم نائبه في بغداد

(أما بعد) فأن حق الله على أئمة المسلمين ، وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم ، ومواريث النبوة التي أورثهم ، وأثر العلم الذي استودعهم ، والعمل بالحق في رعيته ، والتشهير لطاعة الله فيهم ، والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريته ، والأقساط فيما ولاه الله من رعيته برحمته ومنته ، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم ، والسواد الأكبر من حشو الرعية ، وسفلة العامة ممن لا نظر له ، ولا روية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ، والاستضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق ، أهل جهالة ، وعمى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده ، والإيمان به ، ونكوب عن واضحات أعلامه ، وواجب سبيله ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ، تضعف آرائهم ، ونقص عتوهم ، وجفائهم عن التفكير والتذكر ، وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى ، وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا بمجتمعين واتفقوا غير متعاجمين على أنه قديم أول ، لم يخلقه الله ، ويحدثه ، ويخترعه ، وقد قال الله عز وجل في كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء ، وللمؤمنين رحمة وهدى : « إنا جعلناه قرآناً عربياً » فكل ما جعله الله ، فقد خلقه ، وقال : « الحمد لله الذي

خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور»، وقال عز وجل: «كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق، فأخبر أنه قصص لأمر أحدثه بعدها، وتلا به متقدمها، وقال: «الكتاب أحكمت آياته، ثم فصلت من لدن حكيم خبير» وكل محكم مفصل دخله محكم مفصل، والله محكم كتابه ومفصله، فهو خالقه، ومبتدعه. ثم هم الذين جادلوا بالباطل، فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنة، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل قولهم، ومكذب دعواهم، يرد عليهم قولهم، ونحلهم، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق، والدين، والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة، فاستطالوا بذلك على الناس، وغروا به الجهال، حتى مال قوم من أهل السمات الكاذب، والتخشع لغير الله، والتعشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه، ومواطأتهم على سوء آرائهم، تزينا بذلك عندهم، وتصنعاً للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم، واتخذوا دين الله وليجة إلى ضلالتهم، فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم، ونفذت أحكام الكتاب بهم، على دغل دينهم، وثقل أديمهم، وفساد ديانتهم، ويقينهم، وكان ذلك غايتهم التي إليها جروا، وإياها طلبوا في متابعتهم، والكذب على مولاهم، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق، ودرسوا ما فيه. أولئك الذين أصمهم الله، وأعمى أبصارهم، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها، فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة، ورءوس الضلالة، المنقوصون من التوحيد حظاً، والمخسوسون من الإيمان نصيباً، وأوعية الجهالة، وأعلام الكذب، لسان إبليس الناطق في أوليائه، والمائل عن أهوائه، من أهل دين الله، وأحق من يتهم في صدقه، وتطرح شهادته، ولا يوثق بقوله ولا عمله، فإنه لا عمل إلا بعد يقين، وإلا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد، ومن عمى عن رشده وحظه من الإيمان به وتوحيده كان عما سوى ذلك من عمله، والقصد في شهادته أعمى وأضل سبيلاً، ولعمر أمير المؤمنين إن أحجى الناس بالكذب في قوله، وتخرص الباطل في شهادته من كذب على الله ووجهه، ولم يعرف الله حقيقة معرفته، وإن أولاهم برد شهادته في حكم الله ودينه (٤)

من رد شهادة الله على كتابه ، وبهت حق الله بباطله ، فاجمع من يحضرتك من القضاة
واقراء عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتسكشيفهم
عما يعتقدون في خلق الله القرآن ، وإحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين
في عمله ولا واثق فيما قلده ، واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه ،
وخلوص توحيده وبقينه ، فإذا أقرروا بذلك ، ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا
على سبيل الهدى والنجاة ، فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ، ومسألهم
عن عليهم في القرآن ، وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ، ولم يرد ،
والامتناع من توقيعها عنده ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل
عملك في مسألهم ، والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشرف عليهم ، وتفقد آثارهم ،
حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين ، والاخلاص للتوحيد ،
واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله .

كتب في شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ

الكتاب الثاني

وكتب المأمون إلى اسحق بن ابراهيم في أشخاص سبعة ، منهم محمد بن سعد
الواقدي ، وغيره ، فأشخصوا اليه ، فامتحانهم ، وسألهم عن خلق القرآن ، فأجابوا
جميعا إن القرآن مخلوق ، فأشخصهم إلى مدينة السلام ، وأحضرهم اسحاق بن ابراهيم
داره ، فشهروا أمرهم ، وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث ، فأقروا
بمثل ما أجابوا به المأمون ، فحلى سبيلهم ، وكان ما فعل اسحاق بن ابراهيم من ذلك
بأمر المأمون .

وكتب المأمون بعد ذلك إلى اسحق بن ابراهيم .

(أما بعد) فأن من حق الله على خلفائه في أرضه وأمنائه على عبادته الذين
ارتضاهم لأقامة دينه ، وحملهم رعاية خلقه ، وإمضاء حكمه وسننه ، والائتمام بعد له

في بريته أن يجهدوا لله أنفسهم ، وينصحبوا له فيما استحفظهم وقلدهم ويدلوا عليه تبارك وتعالى بفضل العلم الذي أودعهم ، والمعرفة التي جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ، ويردوا من أدبر عن أمره ، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ، ويقفوههم على حدود إيمانهم ، وسبيل فوزهم وعصمتهم ، ويكشفوا لهم عن مغطيات أمورهم ، ومشتبهاتها عليهم ، بما يدفعون الريب عنهم ، ويعود بالضياء والبيننة على كافتهم ، وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم ، إذ كان جامعاً لفنون مصالحهم ، ومنتظماً لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم ، ويتذكروا أن الله مرصد من مساءلتهم عما حملوه وبما أسلفوا وقدموا عنده ، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده ، وحسبه الله ، وكفى به . وما بينه أمير المؤمنين برويته ، وطالعه بفسكره ، فتبين عظيم خطره ، وجليل ما يرجع في الدين وكفه وضرره ما ينال المسلمون بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماماً لهم ، وأثراً من رسول الله وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم بأقياهم ، وانتباهه على كثير منهم ، حتى حسن عندهم وتزين في عقولهم ألا يكون مخلوقاً ، فتعرضوا بذلك لدفع خالق الله ، والذي بان به من خلقه ، وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته ، وإنشائها بقدرته ، والتقدم عليها بأولويته التي لا يبلغ أولاهها ، ولا يدرك مداها ، وكان كل شيء خلقاً من خلقه ، وحدثاً هو المحدث له ، وإن كان القرآن ناطقاً به ، ودا لاعليه ، وقاطعاً للاختلاف فيه ، وضاهوا به قول النصارى في إدعائهم في عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق ، إذ كان كلمة الله ، والله عز وجل يقول : « إنا جعلناه قرآناً عربياً » وتأويل ذلك : « إنا خلقناه » ، كما قال تعالى : « وجعل منها زوجها ، ليسكن إليها » وقال : « وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً » وقال « وجعلنا من الماء كل شيء حي » فسوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في شية الصنعة ، وأخبر أنه جاعله وحده ، فقال : « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » فلهذا على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يحاط إلا بمخلوق ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « لا تحرك به لسانك لتعجل به » ، وقال : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » وقال : « فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً .

أو كذب بآياته» وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا : « ما أنزل الله على بشر من شيء » ، ثم كذبهم على لسان رسوله ، فقال لرسوله : « قل من أنزل الكتاب الذي جاء موسى نورا ، فسمى الله تعالى القرآن ذكرا ، وإيمانا ، ونورا ، وهدي ، ومباركا عربيا ، وقصصا ، فقال : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » وقال : « قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بهذا القرآن لا يأتون بمثله » وقال : « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » وقال : لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه » فجعل له أولا وآخرا ، ودل عليه أنه محدود مخلوق ، وقد عظم هؤلاء الجبهة بقولهم في القرآن الثلم في دينهم ، والجرح في أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الاسلام ، واعترفوا بالتبديل والألحاد في قلوبهم ، حتى عرفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده ، وشبهوه ، والأشياء أولى بخلقهم ، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال هذه المقالة حظا في الدين ، ولا نصيبا من الايمان اليقين ، ولا يرى أن يحل أحدا منهم محل الثقة في أمانة ، ولا عدالة ولا شهادة ، ولا صدق في قول ، ولا حكاية ولا تولية لشيء من أمر الرعية ، وإن ظهر قصد بعضهم ، وعرف بالسداد مسدد فيهم ، فإن الفروع مردودة إلى أصولها ، ومحمولة في الحمد والذم عليها ، ومن كان جاهلا بأمر دينه الذي أمره الله به من وحدانيته ، فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشد في غيره أعمى وأضل سبيلا .

فاقرأ على جعفر بن عيسى ، وعبد الرحمن بن اسحاق القاضي كتاب أمير المؤمنين بما كتب به اليك ، وانصصهما عن عليهما في القرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين إلا بمن وثق باخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد إلا لمن يقر بأن القرآن مخلوق ، فإن قالوا بقول أمير المؤمنين في ذلك ، فتقدم اليهما في امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق ، ونصهم عن قولهم في القرآن ، فمن لم يقل منهم إنه مخلوق أبطلا شهادته ، ولم يقطعها حكما بقوله ، وإن ثبت عفافه بالقصد والسداد في أمره ، وافعل ذلك بمن في سائر عمالك ، من

القضاة ، وأشرف عليهم إشرافا يزيد الله به ذا البصيرة في بصيرته ، ويمنع المرتاب من إغفال دينه ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك إن شاء الله .

٥٢ — هذان هما السكتابان الرسميان اللذان صدرت عنهما المحنة ، وقد أخذ اسحق بن ابراهيم في الامتحان عقب وصول السكتاب الأول ، وتم الامتحان عقب صدور السكتاب الثاني ، ويحسن أن نبين كيف كانت الأجابة ثم تعليق المأمون أو بعبارة أدق احمد بن أبي دؤاد عليها ، ثم نبين المحنة المادية بعد ذلك .

٥٣ — أحضر اسحق للامتحان جماعة من الفقهاء ، والحكام ، والمحدثين ، فأحضر أبا حسان الزيادي ، وبشر بن الوليد السكندی ، وعلى بن أبي مقاتل بن غانم والذئال بن الهيثم ، وسجادة ، والقواريري ، واحمد بن حنبل ، وقتيبة ، وسعدويه الواسطي ، وعلى بن الجعد ، واسحاق بن أبي اسرائيل ، وابن الهرش ، وابن عليّة الأكبر ، ويحيى بن عبد الرحمن العمرى ، وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطاب كان قاضى الرقة ، وأبا نصر التمار ، وأبا معمر القطيعي ، ومحمد بن حاتم بن ميمون ، ومحمد بن نوح ، وابن الفرخان ، وجماعة منهم النضر بن شميل ، وابن علي بن عاصم ، وأبو العوام البزاز ، وابن شجاع ، وعبد الرحمن بن اسحق ، فادخلوا جميعا على اسحاق وابتدأ الامتحان بقراءة كتاب المأمون هذا عليهم مرتين ، حتى فهموه ، ثم أخذ في القاء الأسئلة

قال لبشر بن الوليد : ما تقول في القرآن ؟ فقال قد عرفت مقالتي لأمر المؤمنين غر مرة قال : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى . فقال : أقول القرآن كلام الله . قال لم أسألك عن هذا مخلوق هو ؟ قال الله خالق كل شيء . قال القرآن شيء ؟ قال هو شيء . قال فمخلوق ؟ قال ليس بخالق . قال ليس أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال ما أحسن غير ما قلت لك . وقد استعجبت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه ، وليس عندي غير ما قلت لك .

فأخذ اسحق بن ابراهيم رقعة كانت بين يديه ، فقرأها عليه ، ووقفه عليها فقال : اشهد أن لا إله إلا الله ، أحد فرد ، لم يكن قبله شيء ، ولا بعده شيء ولا يشبهه شيء

من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه . قال نعم . وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكاتب : اكتب ما قال .

ثم قال لعل بن أبي مقاتل ما تقول يا علي ؟ قال سمعت كلامي لأمير المؤمنين غير مرة ، وما عندي غير ما سمع ، فامتنحه بالرقعة ، فأقر بما فيها ، ثم قال له القرآن مخلوق قال القرآن كلام الله . قال : لم أسألك عن هذا . قال : هو كلام الله ، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء ، سمعنا وأطعنا . فقال للكاتب : اكتب مقالته . ثم قال للذيال نحووا من مقالته لعل بن أبي مقاتل . فقال له مثل ذلك .

ثم قال لأبي حسان الزياتي ما عندك ؟ قال سل عما شئت ، فقرأ عليه الرقعة ووقفه عليها ، فأقر بما فيها ، ثم قال من لم يقل هذا القول ، فهو كافر . فقال القرآن مخلوق هو ؟ قال القرآن كلام الله ، والله خالق كل شيء ومادون الله مخلوق . وأمير المؤمنين إمامنا ، وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وقد قلده الله أمرنا فصار يقيم حجتنا وصلاتنا ، ونؤدي إليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا اتهمنا ، وإن نهانا اتهمنا ، وإن دعانا أجبتنا . قال القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته ، قال إن هذه مقالة أمير المؤمنين قال قد تكون مقالة أمير المؤمنين ، ولا يأمر بها الناس ، ولا يدعوهم إليها ، وإن أخبرني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول ، قلت ما أمرتني به ، فإنك الثقة المأمون عليه فيما أبلغتني عنه من شيء ، فأنا أبلغتني عنه بشيء صرت إليه ، قال ما أمرني أن أبلغك شيئاً قال علي بن أبي مقاتل ، قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفرائض والموارث ، ولم يحملوا الناس عليها . قال له أبو حسان ما عندي إلا السمع والطاعة ، فمرني آتمر قال ما أمرني أن آمرك ، وإنما أمرني أن أمتحنك .

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل ، فقال ما تقول في القرآن : قال هو كلام الله قال أمخلوق هو ؟ قال هو كلام الله ، لا أريد عليها ، فامتنحه بما في الرقعة ؛ فلما أتى إلى لا يشبهه شيء في خلقه في معنى من المعاني ؛ ولا وجه من الوجوه ، قال أقول ليس كمثل شيء ، وهو السميع البصير ، فاعترض عليه ابن الهكاه الأصغر ، فقال

أصلحك الله . انه يقول سميع من أذن ، بصير من عين . فقال اسحاق لأحمد ابن حنبل ما معنى قوله سميع بصير ؟ قال هو كما وصف نفسه . قال فما معناه ؟ قال لا أدري ، هو كما يصف نفسه .

ثم دعا بهم رجلا رجلا ، كلهم يقول القرآن : كلام الله ، ألا هؤلاء النفير قتيبه وعبيد الله بن محمد بن الحسن ، وابن عليه الأكبر ، وابن البكاء وعبد المنعم بن ادريس ابن بنت وهب بن منيه ، والمظفر بن مرجا ، ورجلا ضريرا ليس من أهل الفقه ولا يعرف بشيء منه ، إلا أنه دس في ذلك الموضع ، ورجلا من ولد عمر بن الخطاب قاضي الرقة ، وابن الأحمر ، فأما ابن البكاء الأكبر فإنه قال . القرآن مجعول لقول الله تعالى « إنا جعلناه قرآنا عربيا » والقرآن محدث لقوله « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » قال له اسحق فالمجعول ، مخلوق ؟ قال نعم ، قال فالقرآن مخلوق ؟ لا أقول مخلوق ، ولكنه مجعول ، وكتب مقالته .

فلما فرغ من امتحان القوم ، وكتب مقالاتهم اعترض ابن البكاء الأصغر ، فقال أصلحك الله إن هذين القاضيين أئمة فلو أمرتهما ، فاعادا الكلام .

قال له اسحاق هما من يقوم بحجة أمير المؤمنين ، قال فلو أمرتهما أن يسمعانا مقالاتهما لتحكى ذلك عنهما . قال له اسحاق ان شهدت عندهما بشهادة ، فستعلم مقالاتهما ، ان شاء الله .

فكتب مقالة القوم رجلا رجلا ، ووجهت إلى المأمون فسكت القوم تسعة أيام ، ثم دعا بهم . وقد ورد كتاب المأمون جواب كتاب اسحاق بن ابراهيم في أمرهم وها هو ذا :

الكتاب الثالث

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد : فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك جواب كتابه ، فيما ذهب إليه متصنعة أهل القبلة ، وملتصو الرياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة من القول في القرآن ، وأمرك به أمير المؤمنين من امتحانهم وتكشيف أحوالهم ، وإحلالهم محالهم

تذكر احضارك جعفر بن عيسى ، وعبيد الرحمن بن اسحاق عند ورود كتاب أمير المؤمنين مع من أحضرت ممن كان ينسب إلى الفقه ، ويعرف بالجلوس للحديث

وينصب نفسه للفتيا بمدينة السلام ، وقراءتك عليهم جميعا لكتاب أمير المؤمنين ،
ومسألتك إياهم إعتقادهم في القرآن ، والدلالة لهم على حظهم ، وإطباقهم على نفي
الشبهة ، واختلافهم في القرآن ، وأمرك من لم يقل منهم إنه مخلوق بالأمسك عن
الحديث والفتوى في السر والعلانية ، وتقدمك إلى السندی وعباس مولى أمير
المؤمنين بما تقدمت به فيهم إلى التماضيين بمثل ما مثل لك أمير المؤمنين من امتحان
من يحضر مجالسهما من الشهود ، وبث السكتب إلى الفضاة في النواحي من عمك
بالقدوم عليك ، لتحملهم وتمتحنهم على ما حده أمير المؤمنين ، وتبئيتك في آخر الكتاب
أسماء من حضر ومقالاتهم ، وفهم أمير المؤمنين ما اقتضت ، وأمير المؤمنين
يحمد الله كثيراً ، كما هو أهله ، ويسأله أن يصلي على عبده ورسوله محمد صلى الله
عليه وسلم ، ويرغب إلى الله في التوفيق لطاعته ، وحسن المعونة على صالح نيته برحمته
وقد تدبر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن ، وما رجع
إليك فيه كل امرئ منهم ، وما شرحت من مقالاتهم .

« فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد في نفي التشبيه ، وما أمسك عنه من أن
القرآن مخلوق وادعى من تركه الكلام في ذلك واستعهاد أمير المؤمنين ، فقد كذب
بشر في ذلك ، وكفر ، وقال الزور والمنكر ، ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه
في ذلك ، ولا في غيره ، عهد ولا نظر ، أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة
الإخلاص ، والقول بأن القرآن مخلوق ، فادع به إليك ، وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين
من ذلك ، وانصصه عن قوله في القرآن ، واستتبته منه ، فإن أمير المؤمنين يرى أن
تستتب من قال بمقالته ، إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح ، والشرك المحض عند
أمير المؤمنين ، فإن تاب منها فاشهر أمره ، وإن أصر على شركه ، ودفع أن يكون
القرآن مخلوقاً بكفره وإلحاده ، فاضرب عنقه ، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه ، إن
شاء الله ، وكذلك إبراهيم بن المهدي ، فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشرأ ، فإنه كان يقول
بقوله ، وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بوالغ ، فإن قال إن القرآن مخلوق ، فاشهر
أمره ، واكشفه ، وإلا فاضرب عنقه ، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه ، إن شاء الله .

وأما علي بن أبي مقاتل فغل له : ألسنت التماثل لأمير المؤمنين : إنك تحلل وتحرم والمتكلم له بمثل ما كلمته به ، مما لم يذهب عنه ذكره .

وأما الذيال بن الهيثم ، فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الأنبار ، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس ما يشغله ، وأنه لو كان مقتنياً آثار سلفه ، وسالكاً مناهجهم ، ومحتذياً سبيلهم ، لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه ، وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبي العرام ، وقوله إنه لا يحسن الجواب في القرآن ، فأعلمه أنه صبي في عقله ، لا في سنه ، جاهل ، وإنه إن كان لا يحسن الجواب في القرآن فسيحسبه ، إذا أخذه التأديب ، ثم إن لم يفعل ، كان السيف من وراء ذلك ، إن شاء الله .

وأما أحمد بن حنبل ، وما تكتب عنه ، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة ، وسيله فيها ، واستدل على جهله ، وآفته بها .

وأما الفضل بن غانم فأعلمه أنه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما اكتسب من الأموال في أقل من سنة ، وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله في ذلك ، فإنه من كان شأنه شأنه ، وكانت رغبته في الدينار والدرهم رغبته ، فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعاً فيهما ، وإشاراً لما جل نفعهما ، وإنه مع ذلك القائل لعلي بن هشام ما قال ، والمخالف له فيما خالفه فيه ، فما الذي حال به عن ذلك ، ونقله إلى غيره . وأما الزيادي ، فأعلمه أنه كان منتحلاً لأول دعي كان في الإسلام ، خولف فيه حكم رسول الله صل الله عليه وسلم ، وكان جديراً أن يسلك مسلكه ، فأنكر أبو حسان أن يكون مولى لزيادة أو يكون مولى لأحد من الناس ، وذكر أنه إنما نسب إلى زياد لأمر من الأمور .

وأما المعروف بأبي نصر التمار ، فإن أمير المؤمنين شبهه خساسة عقله بخساسة متجره وأما الفضل بن الفرخان ، فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أخذ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره ، تربصاً بمن استودعه ، وطمعاً في الاستكثار لما صار في يده ، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده ، وتطاول الأيام به ، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لا جزاك الله خيراً عن تقويتك مثل هذا ، وائتمانك إياه ، وهو معتقد للشرك ، منسلخ من التوحيد .

وأما محمد بن حاتم ، وابن نوح ، والمعروف بأبي معمر ، فأعلمه أنهم منسأغيل بأكل الربا ، عن الوقوف على التوحيد ، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم في الله ومجاهدتهم ، إلا لإربابهم ، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم ، لاستحل ذلك ، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا ، وصاروا للنصارى مثالا .

وأما أحمد بن شجاع فأعلمه أنك صاحبه بالأمس ، والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذي كان استحلّه من مال علي بن هشام ، وأنه ممن الدينار والدرهم دينه .
وأما سعدويه الواسطي فقل له : قبح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث ، والتزين به ، والحرص على طلب الرئاسة فيه ، أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب بها : متى يمتحن ، فيجلس للحديث . وأما المعروف بسجادة ، وإنكاره أن يكون سمع من كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه ، التمول بأن القرآن مخلوق ، فأعلمه أنه في شغله بإعداد النوى ، وحكمه لإصلاح سجادته ، وبالودائع التي دفعها إليه علي بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وأهلها ، ثم سله عما كان يوسف بن أبي يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه ، إن كان شاهدهما وجالسهما .

وأما القواريري ففهما تكشف من أحواله ؛ وقبوله الرشا والمصانعات ما أبان عن مذهبه ، وسوء طريقته ، وسخافة عقله ودينه ، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أن يتولى لجعفر بن عيسى الحسنى مسائله ، فتقدم إلى جعفر بن عيسى في رفضه ، وترك الثقة به ، والاستئانة إليه .

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمري ، فإن كان من ولد عمر بن الخطاب فخوابه معروف ، وأما محمد بن الحسن بن علي بن عاصم ، فإنه لو كان مقتديا بمن مضى من سلفه لم ينتحل النحلة التي حكيت عنه ، وإنه بعد صى يحتاج إلى تعليم ، وقد كان أمير المؤمنين ، وجه إليك المعروف بأبي مسهر ، بعد أن نصه أمير المؤمنين عن محنته في القرآن ، فجمجم عنها ، ولجأ فيها ، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف ، فأقر ذميا ، فانصصه عن إقراره ، فإن كان مقبلا عليه ، فاشهر في ذلك وأظهره إن شاء الله ، ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمر المؤمنين في كتابك ، وذكره أمير المؤمنين لك ، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا ، ولم يقل إن القرآن مخلوق ، بعد بشر بن الوليد ،

وابراهيم بن المهدي ، فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهم في طريقهم ، حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين ، ويسلمهم إلى من يؤمر بتسليمهم إليه ، لينصهم أمير المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله .

وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بندارية ، ولم ينظر به اجتماع السكتب الخرائطية معجلا به ، تقربا إلى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما اعتمد ، وإدراك ما أمل ، من جزيل ثواب الله عليه ، فأنفذ لما أتاك من أمير المؤمنين ، وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط ، لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه ، إن شاء الله . وكتب سنة ٢١٨ هـ .

٥٤ — هذه هي السكتب ، وهل نترك المأمون ، وصنيعه ، وإخافه في الاختبار ، ثم تدرجه من الامتحان إلى الايذاء والاهانة ، ونقل العلماء في مهابة وذلة مغلولين مقيدين ، يشغلهم الحديد ، حتى يموت شهيدا في الطريق من يضعف جسمه عن الاحتمال ، ويبقى أحمد ؛ إذ في جسمه قوة ، وفي نفسه عزيمة ، وفي قلبه إيمان ؛ وفيه صبر وجلد ، ثم وصيته بعد ذلك باستمرار الأذى — هل نتركه من غير أن نتعرف الحامل عليه ، والباعث له على أن يركب ذلك المركب الصعب ؟ لا بد من تعرف سبب ذلك ، حتى نعذر إليه ، ولقد أنصف التاريخ أحمد ، ورفعته إلى مرتبة الأبدال بل اندفع في المغالاة بعض مريديه ، فجعلوه من القديسين ، وقال قائلهم : « لو كان في بني إسرائيل لكان نبيا » .

٥٥ — ولا نجد السبب الذي دفع المأمون مستورا ، حتى نكشفه ، ولا مبهما حتى نبينه ، بل إن التاريخ ذكره ، والسكتب التي نقلناها لك ، والملاحظات التي أحاطتها ، ولغة كتابها تدل على الباعث ، وعلى من حرصه ، حتى تحمل كبر هذا الأذى .

إن المأمون قد استوزر أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي ، وجعله كاتبه ، وصاحب السلطان في دولته ، وكانت له منزلة في نفسه ، حتى أوصى أخاه من بعده أن يجعله في منصبه ، لا يبعده ، والسكتب التي كتبت واضح تماما أنها بلغة أحمد بن أبي دؤاد ،

ففيها اسهاب وطول ، ولم يعرف أن الخلفاء إذا كتبوا بأنفسهم يسهبون ذلك الاسهاب ، وترى التعبير فيها دائماً عن الخليفة بلغة الغائب ، ولم يخطئ مرة ، ويكتبها بلغة المتكلم ، وفيها نزول إلى الطعن في فتاوى هذا ، واستحلال ذلك للربا ، وكل هذا نجد مثل المأمون الحصيف مما يتسامى عنه ، وهل لنا أن نفرض أن هذه السكتب كتبت ، والمأمون مريض ، قد تضعضعت نفسه ، وأنه لهذا سوغ له ما كتب ، وأنه لو كان في صحة وقوة ما سوغ أن يرسل باسمه كتاب يحوى طعنا في هذا ، وكشفا عن ستر غيره ؛ إن ذلك لا يقع فيه أمثال المأمون الذين يتجهون إلى معالي الأمور ، ولا ينزلون إلى سفاسفها ، فلا يتبدل إلى ذكر ما جاء في كتابه ، إذا كان يحزره بنفسه أو يكون في حال من القوة والعزم ، ودراسة الأمور عند التوقيع عليه إذا كان الكاتب غيره ، لذلك نرجح أنه لم يطالع عليها عند إرسالها ، وإن علم مضمونها ، أو اطالع عليها في حال ضعف ، لا يملك السيطرة الكافية على أموره ، وما يعرض عليه من شئون ، ولذلك مات وشيكا من إرسال هذه السكتب .

٥٦ — وإننا إذا علمنا أن المأمون قد رأى ذلك الرأي ، وهو خلق القرآن منذ تولى الخلافة ، بل قبلها ، وكان يناقش فيه ، ويدعو إليه ، في مجلس مناظراته ، من غير أن يكشف عن القلوب ، ويمتحن العقول ، وينزل البلايا ، فلماذا تحول ذلك التحول في آخر حياته ، لماذا نقل المسألة إلى الابتلاء ؟ لاشك أنه أحمد بن أبي دؤاد كاتب هذه السكتب هو المحرض ، ولا بد أنه استغل حال ضعف نفسه في المأمون ، فهو قد كتب السكتب بتلك اللغة ، وحرص على كتابتها متضمنة ما تضمنت من ابتلاء واختبار .

إن العاقل يرد عليه سؤال يحيره لماذا لم يتخذ المأمون ما اتخذ وهو ببغداد ، والعلماء جميعا حوله ، ولم يدع إلى الامتحان ، إلا وهو غائب عن بغداد ، بالسكتب يرسلها ، ثم يكون ذلك قريبا من موته !! إنه سلطان أحمد بن أبي دؤاد الكامل ، قد اتخذ فيه اسم المأمون ، ولم تكن إرادة المأمون في الأمر كاملة ، ولم يكن له قوته الحازمة ، إذ أنه وهو في قوته الجسمية كان يناقش العلماء في ذلك — السنين الطوال ، ولم ينقل

الأمر من المناقشة إلى الأذى والامتحان، مادام قويا وما دام في بغداد، إنه إذن أحمد ابن أبي دؤاد المسئول من كل الوجوه عن كبر هذا الأمر، إن كان فيه إثم، وتبعة المأمون أنه جعل حاشيته، ومعاونيه من أصحاب المذاهب التي لا يأخذ بها الجمهور في ذلك الوقت، ولكنه كان وهو في قوته يجعل الأمر في دائرة الاعتدال لا يعدوه.

٥٧ — وإذا حملنا أحمد بن أبي دؤاد كبر هذه الأمر، فهل لنا أن نحكم أن مسلك ابن أبي دؤاد كان شراً لشيء من الخير فيه؟ وأن أحمد بن حنبل كان موقفه من كل الوجوه صواباً لا مجال للخطأ فيه؟

إن هذه قضية قد تعددت فيها جهات النظر، ولكل جهة حكم خاص بها، فمن جهة التقوى والإيمان والعزيمة وقوة الصبر والاحتمال ليس لنا إلا أن نقرر أن أحمد بن حنبل كان بطلاً من أبطال التاريخ الذين ابتلوا فأحسنوا البلاء، وصبروا في سبيل ما يعتقدون الصبر الجميل، ولم يقبلوا الدنية في دينهم، ويؤثروا الفانية على الباقية، في سبيل ما يعتقدون.

ومن جهة الإحتياط للدين، وصونه عن المقالات الفلسفية ومتاهات العقول ليس لنا إلا أن نحمد موقف أحمد، لأنه كان لا يريد الخوض في القضية لاسلباً ولا إيجاباً، بل كان متوقفاً لا يبت برأيه، بل إنه يرى أن هذا من المسائل التي لا يحمل بالمسلم الخوض فيها، والتعمق في دراستها، لأنه لم يؤثر عن السلف كلام في هذا، وهو في مسائل الدين كان رجلاً أثرياً لا يخوض إلا فيما خاض فيه السابقون، ليهتدي بهديهم، وليسلك مثل سليلهم، وسنمين رأيه فضل بيان عند الكلام في آرائه.

ولسكن إن نظرنا من وجهة الحكم في القضية من حيث كون القرآن مخلوقاً أو غير مخلوق، فإن الأدلة التي ساقها ابن أبي دؤاد في تلك الكتب، والعقل والبداهة تحملنا على الحكم للبعثرة بصحة نظرهم، فإن القرآن، وإن كان كلام الله مخلوق، وهذا لا يمنع أن صفة الكلام قديمة بقدم الله سبحانه وتعالى، كما أن خلق الله سبحانه وتعالى بقدرته، وقدره الله قديمة، وكونه خلق الخلق بهذه القدرة لم يستدع قدم الخلق، فلذلك كون القرآن تكلم الله به، وخاطب نبيه محمداً به، وأنزله عليه بقدرته، وبصفته

الكلام التي وصف نفسه بها ، لا يستدعى أن يكون القرآن قديماً .
٥٩ — وإن سلمنا لأحمد بن أبي دؤاد ، وللمعتزلة عامة بصواب نظرهم في هذه القضية ، فهل نسلم لهم مسلسلهم في إنزال الأذى بمخالفهم ، وخصوصاً أهل التقى والفضل ، ونسلم لهم أن يمتحنوا الضمائر ، ويكشفوا السرائر ؟ إن ذلك هو موضع النقد ، انتقده الناس عليهم قديماً ، في عصر أحمد ، حتى انتقده بعض من كانوا يرون مثل رأيهم ، وحتى اضطر الجاحظ المعتزلي الذي كان يعاصر أحمد ، إلى الدفاع عن ذلك ، فقال في إحدى كتاباته في الدفاع عن الابتلاء ، وكشف السرائر ، والتكفير والاضطهاد : « وبعد فنحن لم نكفر إلا من أوسعناه حجة ، ولم نمتحن إلا أهل التهمة ، وليس كشف المتنهم من التجسس ، ولا امتحان الظنين من هتك الأستار ، ولو كان كل كشف هتكاً ، وكل امتحان تجسساً لكان الفاضل أهتك الناس لستر ، وأشد الناس تتبعاً لعورة » (١)

وهذه القضية ليست صادقة ، فهم لم يخصوا بامتحانهم أهل التهمة ، بل عموماً ، حتى نزلت بأكبر أهل الفضل ، فهل كان مثل أحمد متهماً في دينه ، فإنه إذا كان مثل أحمد من أهل التهمة ، فلا دين ، ولا تدين ، وعلى الدنيا العفاء ، لذلك لم يكن لمثل كلام الجاحظ قول في هذا المقام .

وإذا كان الأمر كذلك فليس الاضطهاد والأذى صواباً ، ولا مبرر له في نظرنا ، ولكن أكان الذين فعلوا ذلك لم يكن لهم أي مبرر ، وإن كنا لانوافق عليه ، وهل لنا أن نحكم بأن أولئك العللاء ارتكبوا ما ارتكبوا المحض السكيد والأذى من غير باعث ، وإن لم يكن قوياً يبرر الأذى والانتقام ؟

هذا هو السؤال الذي يضطرب في النفس « ولا يجد الإنسان الجواب القاطع عليه ، وإذا لم يكن الجزم القاطع بالسلب أو الإيجاب له طريق قريب أو بعيد ، فلم يبق إلا أن نتعرف بطريق الظن ، وقد يهديننا إلى أمر راجح ، وإن أسباب الترجيح بين أيدينا ، فأن عدمنا سبب اليقين ، لم نعدم سبب الظن الراجح ،

لقد جاء في أحد كتب المأمون ، أو بالأحرى كتب أحمد ابن أبي دؤاد ، في إثبات بطلان قول من قالوا إن القرآن قديم : « وضاهوا به قول النصارى في ادعائهم في عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق ؛ إذ كان كلمة الله » وإن هذا القول يدل على أن المأمون والمعتزلة معه ، قد رأوا أنه في ادعاء أن القرآن قديم ، وقرار ذلك في نفوس العامة ينتهى بالحكم بتعدد القدماء ، ثم جسم له الخيال أن ذلك ينتهى إلى تعدد الآلهة في العبادة ، وأن ذلك إشراك بالله سبحانه وتعالى ، وأن المثل في ذلك قائم حتى ، وهو أن النصارى حكموا بتقديم عيسى عليه السلام ، ثم عبدوه ؛ فلما رأى المعتزلة ، ومعهم المأمون فشوا ذلك القول عند العامة أو حشوا الأمة كما قال في كتابه ، وزين ذلك لهم الفقهاء والمحدثون ، وأهل التقوى عندهم ، هالهم الأمر ، وظنوا ذلك يؤدي إلى ضلال الأمة ، كما ضل من قبل النصارى في عبادتهم عيسى عليه السلام ، ولم يجدوا السبيل لذلك إلا أن يحملوه على الحق بقوة السلطان بعد أن عجزوا عن حملهم عليه بقوة البيان .

إن هذا السبب واضح من كتبهم ، وهو باعث لعل فيه بعض الإخلاص ، ويقوى هذا أن المعتزلة الذين تمرسوا بالرد على الذين هاجموا الإسلام من قبل ، وجدوا كما جاء في رسالة النصارى للجاحظ المعتزلى أن الكائدين للإسلام يرتضونه ، ويرحبون بمقالة الفقهاء والمحدثين الذين يروجونها عند العامة ؛ لأنهم يتخذون من الحكم بأن كل كلام لله قديم سبيلا لأن يقيموا الحجة على أن المسيح قديم ، وتكون تلك الحجة من الكتاب الكريم ؛ إذ فيه أن المسيح كلمة الله ، وكل كلام لله قديم ، وكلمة الله قديمة ، فالمسيح قديم ولعله مما جال بخاطر أولئك المعتزلة أن ترويح فكرة قدم القرآن باعتباره كلام الله سبحانه وتعالى - فكرة مسيحية دست بين الجماهير الإسلامية فيما كان يندس فيهم من أفكار ، وقد تلقاها الجمهور بالقبول ، لما فيها من تقديس للقرآن الكريم .

وإن الأخبار الصادقة تثبت أن النصارى الذين كانوا يحيشون بين المسلمين ، ويؤلمهم أن يدخل المسيحيون في دين الله أفواجا أفواجا ، كانوا يشيرون أفكاراً بين المسلمين ، ويتخذون من هذه الأفكار حججاً لهم يجادلون بها عن دينهم .

فقد جاء كتاب تراث الإسلام عن يوحنا الدمشقي الذي كان في خدمة الأمويين إلى عهد هشام بن عبد الملك أنه كان يلحق بعض المسيحيين ما يجادلون به المسلمين ، فيقول : « إذا سألك العربي : ما تقول في المسيح ؟ فقل إنه كلمة الله ، ثم ليسأل النصراني المسلم : بم سمي المسيح في القرآن ، وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم ، فإنه سيضطر إلى أن يقول إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فإذا أجاب بذلك ، فاسأله عن كلمة الله وروحه ، أخلوقة أم غير مخلوقة ، فإن قال مخلوقة ، فليرد عليه بأن الله كان ، ولم تكن كلمة ولا روح فأن قلت ذلك ، فسيفحم العربي ؛ لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين »

٦١ — إن هذا لم يكن خافيا عن أعين المعتزلة الذين كانوا يجادلون أهل الديانات الأخرى والزنادقة ، فهم يعلمون أن من يقول القرآن قديم يمد النصارى بحجة يجادلون بها ، وأن من الواجب ألا يقال هذا القول ؛ لأنه يعطى للخصوم حجة على الإسلام ، ويفتح الشجرة لمن ينالون منه ، وليس هو الحق في ذاته ، ومن قاله فقد ضاهى قول النصارى في المسيح ، وحكم بتعدد القدماء ، وجعل القرآن الذي ينطق به الناس قديما كشأن الله سبحانه وتعالى .

وإذا كان ذلك نظر المعتزلة فيما نظن ، وهو نظر عميق سليم يحتاط للوحدانية ويحتاط للإسلام ، فهو موقف لا يخلو من النبيل ، وهو إيمان سليم ، فإذا كان أحمد ابن حنبل يحتاط لدينه ، فلا يخوض في شيء لم يخض فيه السلف الصالح ، فأولئك أيضاً يحتاطون لدينهم ، فيسدون الأبواب بالحق لكل من يريد بالإسلام كيدا . فلم يكونوا خارجين على الدين ، إذ دعوا بدعائهم ، وقد كان الأولى ألا يخاض في هذه المسألة قط ، كما يروم أحمد ، ولكن الذين لا يريدون بالإسلام خيرا أذاعوا هذا ، ونشروه ، فحق على المسلم أن يذكر الحقيقة كما هي ، ويحميها ، ويدعو إليها .

٦٢ — إلى هنا قد أنصفنا أحمد بن أبي دؤاد والمعتزلة من حيث الرأي ، ولكننا من حيث العمل نجدهم قد اشتطوا وغلوا غلوا كبيرا ، وحسبهم من الغلو أن ينزلوا سوط العذاب بالتقي النقي الطاهر أحمد بن حنبل ، وأن يوغلوا في إيدائه

وأن يزوج في السجن ، ولقد نزل البلاء واشتد ، حتى أصبح الناس لا ينظرون إليها على أنها مغالبة رأى برأى ، ولا على أنها إثبات تنزيه الله سبحانه وتعالى ، بل على أنها عنة قاسية نزلت بالاسلام والمسلمين ، وأمة الهدى والدين ، وأنها تفتيش عن القلوب والضمائر ، واختبار للنفوس والسرائر ، فأبعد المخطيء في خطئه ، وظنوا الخير فيه ، والشر فيما يدعوه السلطان إليه ، وانتهى الأمر بأن الآراء التي تؤيد بالقوة والتعذيب لا يكون لها الغلب ، ولو كانت محض الحق المبين ، وكلما زادوا في المحنة زاد الناس للمتجنين إجلالا ، ولفكرهم اتباعا ، وقالوا لو كان خيرا ما يدعون إليه ما كان العذاب سبيلا ، والسجن والتقييد طريقه .

٦٣ — مات المأمون واحمد قد سيق إليه مقيدا بالأغلال ، ومصفدا بالحديد ، ولكن موته لم يمهله المحنة ، بل ابتدأت تأخذ دورا أقسى وأشد وأحد ، وأعم ، ذلك أنه ضمن ما أوصى به أخاه المعتصم أمرين (أحدهما) وصية بالاستمساك بدعوته في مسألة خلق القرآن ، (وثانيهما) وهو الأشد ، الاستمساك بأحمد بن أبي دؤاد ، ذلك أن أحمد هذا هو صاحب الفكرة في حمل الناس على ذلك القول بقوة السلطان ، وعنف الامتحان ، وانزال البلاء ، والسجن ، والتقييد ووضع الأغلال .

وإن المعتصم لم يكن رجل علم ، بل كان رجل سيف ، لا يضعه عن عاتقه ، فترك أمر خلق القرآن لابن أبي دؤاد يدبر الأمر فيه ، لينفذ وصية المأمون في ذلك .

وقد تبين أن أحمد بن حنبل كان مقيدا مسوقا عندما مات المأمون ، فأعيد إلى السجن ببغداد ، حتى يصدر في شأنه أمر ، ثم سيق إلى المعتصم ، واتخذت معه ذرائع الاغراء والارهاب ، فما أجدى في حمله ترغيب ، ولا ترهيب ، فلما لم يجد القول رغباً ورهباً ، نفذوا الوعيد ، فأخذوا يضربونه بالسياط المرة بعد الأخرى ، ولم يترك في كل مرة ، حتى يغشى عليه ، وينخس بالسيف ، فلا يحس ، وتكرر ذلك ، مع حبسه نحو من ثمانية وعشرين شهرا ، فلما استيسسوا منه ، وثارت في نفوسهم بعض نوازع الرحمة أطلقوا سراحه ، وأعادوه إلى بيته وقد أثنته الجراح ، وأثقله الضرب المبرح المتوالى ، واللقاء في غيابات السجن .

٦٤ — استقر احمد في بيته ، بعد أن عاد إليه لا يقوى على السير ، وقد انتصر بتقاه ، وانهزم غيره ، وإن كانوا الأقوياء ، واستمر احمد منقطعاً عن الدرس والتحديث ريثما التأمت جراحه ، واستطاع أن يخرج إلى المسجد ، فلما رد الله إليه ثوب العافية ، وذهبت وعشاء هذه المحنة عن جسمه ، وإن كانت قد تركت آثاراً وندوباً فيه ، وأوجاعاً في بعض أجزائه ومكث يحدث ، ويدرس بالمسجد ، حتى مات المعتصم ، فلما تولى الواثق ، أعاد المحنة على احمد ، ولسكنه لم يتناول السوط ويضرب احمد كما فعل المعتصم ؛ إذ رأى أن ذلك زاده منزلة عند الناس ، وزاد فسكرته ذيوفاً ، ومنع دعوة الخليفة أن تذيع وتفشو ، فوق ما ترتب على ذلك من سخط العامة ، ونقمة ماسماهم ابن أبي دؤاد حشو الأمة ، فإن العاقل يحسب لنقمتهم حساباً ، ولذلك لم يرد احمد بن أبي دؤاد والواثق من بعد المعتصم أن يعيد الأذى الجسمي ، بل منعه فقط من الاجتماع بالناس ، وقال الواثق له : « لا تجمعن إليك أحداً ولا تساكني في بلد أنا فيه ، فأقام الامام احمد مختفياً ، لا يخرج إلى صلاة ، ولا غيرها ، حتى مات الواثق .

وبذلك انقطع احمد عن الدراسة مدة تزيد على خمس سنوات إلى سنة ٢٣٢ ثنتين وثلاثين ومائتين ، وبعدها عاد إلى الدرس والتحديث مكرماً عزيزاً ترفعه عزة التقى ، وجلال السن ، والقناعة والزهادة ، وحسن البلاء .

٦٥ — ومن حق التاريخ أن نقول إن المحنة لم تكن مقصورة على احمد وإن كان احمد قد سبقهم إلى الصبر ، بل تجاوزته إلى غيره ، وكان الفقهاء يساقون من الأمصار إلى بغداد ، ليختبروا في هذه المسألة ، ويفتش عن خبايا قلوبهم ، ومن نزل به من ذلك يوسف بن يحيى البويطي الفقيه المصري صاحب الامام الشافعي ، فقد دعي إلى أن يقول إن القرآن مخلوق ، فامتنع ، فحمل مقيداً مغلولاً ، حتى مات في أصفاده محتسباً ذلك ربه ، ومنهم نعيم بن حماد ، فقد مات في سجن الواثق مقيداً لذلك .

وقد تفاقم الخطب ، واستمرت البلوى ، حتى سئم الناس هذه الحال ، بل حتى سئمها القائمون بها ، وحتى صارت هزلاً لدى بعض الناس ، يروى أنه دخل عبادة المضحك على الواثق ، فقال : يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك في القرآن ، قال ويلك ، القرآن يموت ، قال يا أمير المؤمنين ، كل مخلوق يموت ، بالله يا أمير المؤمنين بهم يصلى الناس

التراويح ، فضحك الوراق ، وقال : قاتلك الله ، أمسك .

ويروى الدميري في كتاب حياة الحيوان أن الوراق رجع في آخر حياته عن إنزال المحنة بمن لا يرى هذا الرأي ؛ إذ دخل عليه شيخ من نزلت به المحنة ، فقال في ضمن مجادلته مع ابن أبي دؤاد .

« شيء لم يدع إليه رسول الله ﷺ ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ولا عثمان ، ولا علي ، تدعو أنت الناس إليه ، ليس يخلو أن تقول علموه ، أو جهلوه ، فإن قلت علموه ، وسكتوا عنه ، وسعني وإياك من السكوت ماوسع القوم ، وإن قلت جهلوه ، وعلمته أنت ، فيالكع ابن لكع ، يجهل النبي ﷺ ، والخلفاء الراشدون رضى الله عنهم شيئاً وتعلمه أنت ١١ »

فلما سمع الوراق ذلك ، وثب من مجلسه ، وأخذ يردد تلك الكلمات ، وعفا عن الشيخ ، ورجع عما كان يفعل ، كما روى ابنه المهدي .

٦٦ - هذا تفصيل ذلك الامتحان الخطير القاسي الذي عكر حياة ذلك الامام الورع التقى ، وأزعج هدوء تلك النفس القارة المطمئنة ، ودام نحواً من أربع عشرة سنة ، تراخى عنه العذاب والتنكيل والاضطهاد في نصفها واستمر في سائرها . وقد يقول قائل أما كان الأولى بذلك الرجل التقى أن يتخذ التقية فيما كانوا يريدون ، وقد دعي إلى ذلك ، وقد دعاه بعض معاصريه أن يأخذ بمبدأ التقية ، وهي أن يظهر شيئاً لا يعتقد ، وقاية لنفسه من التلف .

ولكنه رفض حيث سلك مسلكه كثيرون ، وتأبى ، حيث تنزل عن فكرته فيما يظهر غيره ، ونحن وإن كنا لانرى ذلك التوقف عن الحكم بخلق القرآن مع اجلالنا لمقام احمد ، وورعه ، واحتياطه لدينه - نجد أن الأخذ بالتقية في دار الاسلام لا يصح ؛ لأن المنكر في دار الاسلام يجب استنكاره ، وإلا تحولت صفتها ، ولم يعد لها اسمها ، وإن الاستنكار له مراتب ، والتقية تكون حيث لا يكون للاسلام قوة وسطان ، كبلاد يضطهد الاسلام فيها ، ولا سبيل للمسلم في الخروج منها ، فيستخفي بدينه ، وتلك رخصة رخصت له تيسيراً وتسهيلاً ، وكل نفس وما تطيق .

ولأن التقية لا تجوز من الاثمة الذين يقتدى بهم ، ويهتدى بهديهم ، حتى

لا يفضل الناس ، لأنهم إن نطقوا بغير ما يعتقدون ، وليس للناس علم ما في الصدور ، اتبعوهم في مظهرهم ، ويظنون أنه الحق الذي ارتضوه ديناً ، وبذلك يكون الفساد عاماً ، ولا يخص ، وحق على الإمام أن يكون الممتحن المبتلى ، فتنتشر الفسكرة السليمة ، ويكون الابتلاء سبيل نشرها وذيوعها .

لذلك نحن نرى أن صبر الإمام أحمد كان هو الأولى به والأجدر والأحمد له ولفكرته ، وإن كنا نرى غيرها . هذا وسنمحص في بيان آراء أحمد حقيقة فكرته في هذا المقام .

معيشة أحمد وبيته

٦٧ - سردنا حياة أحمد العلمية ، فذكرناه طالبا للعلم والحديث ينتقل في الأقاليم الإسلامية ، وشاديا في العلم ، وعالما قد جلس للدرس والتحديث ، وإماما يقتدى به ، ويسلك سبيله ، وذكرنا تلك الرياح العاتية القاسية التي عرضت لنفس أحمد في حياته العلمية ، فأزعجتها ، وفصلنا القول في ذلك تفصيلا .

ولم نتعرض لموارد رزق أحمد كيف كانت معيشته ، أكان في بسطة من العيش أم كان يعيش عيشة القل أو الكفاف ، وما كان مورد رزقه ؟ سواء أكان قليلا أم كثيرا ؟ ثم أكان يقبل هدايا الخلفاء ويستطيعها كما كان يفعل مالك وأبو يوسف ، ومحمد ، أم كان يتعافاها كأبي حنيفة ، أم كان بين ذلك قواما كما كان يفعل الشافعي رضي الله عنه ؟

هذه أسئلة تتقاضانا أن نجيب عنها ، وأن نبينها بإيجاز ، ولذلك سنتكلم في حاله ومورد رزقه ، ثم ما كان منه بالنسبة لهدايا الخلفاء ، ومن يتصل به قبل المحنة وبعدها .

٦٨ عاش أحمد فقيرا مكدودا محدودا ، ولم يعيش محدودا ذا مال وفير وكان يؤثر الخصاصة على أن يكون ذا مال لا يعرف أنه حلال خالص ، أو يكون فيه منة العطاء ، وكثيرا ما كانت تضطره حاله أن يعمل بيديه ليكسب ، أو أن يؤجر نفسه في عمل يعمل به إذا انقطع به الطريق ، ولم يكن معه مال ، وكان يؤثر ذلك على أن يقبل عطاء ، فإن العطاء في مثل هذه الشدة ، ومن يعجز عن مكافأته في زمن قريب لا يستطيع أن يتحمله أحمد العيوف الأبي ، وقد حرر بذلك نفسه ، وأتعب جسمه ، وتلك كانت حاله دائما ، عند ما يتردد بين تعب النفس ، وتعب الجسم .

٦٩ - كان أحمد يعيش من غلة عقار قد تركه له أبوه ، فقد جاء في المناقب لابن الجوزي في هذا المقام :

« كان أحمد رضي الله عنه قد خالف له أبوه طرزا ، وكان يأكل من غلة تلك الطرز ، ويتعفف بكرامتها عن الناس » (١)

(١) جمع الطرز جمع طراز ككتاب وكتب ، والطراز الموضع الذي ينسج فيه الثياب فيظهر أن أحمد ورث هذه الطرز فكان يستاجرها .

ويظهر أنه كانت له دكاكين يؤجرها ، فقد جاء في حلية الأولياء مانصه :
« وقع من يد أحمد بن محمد بن حنبل مقراض في البئر ، فجاء ساكن له ، فأخرجه ،
فلما أن أخرجه ناوله أبو عبد الله مقدار نصف درهم أو أقل أو أكثر ، فقال : المقراض
يساوى قيراطا ، لا آخذ شيئا ، فخرج ، فلما كان بعد أيام قال له : كم عليك من كراء
الخانوت ؟ قال كراء ثلاثة أشهر ، وكراؤه في كل شهر ثلاثة دراهم ، فضرب على حسابه ،
وقال أنت في حل »

فهذه القصة فوق دلائلها على أن أحمدما كان يحتمل منة ، وأنه كان يجزى عن المعروف
أضعافا - تدل على أنه كان له حوانيت وأنها كانت تدر عليه غلة ، وإن كانت لا تجعله في
بحبوحة من العيش تسد خلته ، وتدفع حاجته والأخبار متضاربة على أنها لم تكن كبيرة ،
بل كانت ضئيلة ، ولقد ذكر ابن كثير مقدارها ، فقال :

« كانت غلته من ملك له في كل شهر سبعة عشر درهما ، ينفقها على عياله ، ويتقنع بذلك
رحمه الله صابرا محتسبا » وهذه غلة قليلة بلا ريب ، وسواء أصبح ذلك المقدار الذي
رواه ابن كثير ، أم لم يصح ، فالأخبار متضاربة على أنها كانت ضئيلة لا تكاد تكفي
حاجته ، لولا فرط القناعة والصبر ، واستعداده لأن يطلب عيشه بالكسب والتعب ،
ولقد كان يحرص كل الحرص على أن يكون مورد رزقه حلالا من غير شبهة ، ولذلك
يعان أن ذلك العقار الذي كان يدر عليه ذلك الرزق المحدود يغلب على ظنه أنه ماله
عن أبيه حلال ، ولو ادعاه شخص لسلبه إليه ، ولذا جاء في المناقب لابن الجوزي مانصه :
« سأل رجل أحمد بن حنبل عن العقار الذي كان يستغله ، ويسكن دار منه كيف
سبيله عنه ، فقال له هذا هذا شيء قد ورثته عن أبي ، فن جاءني رجل ، فصحيح أنه
له خرجت عنه ، ودفعته إليه »

٧٠ - كان هذا القدر اليسير من المال يتقنع به ، ويحمد الله عليه ، ولا يرضى
معه أن يأخذ من أحد عطاء ، ولأن يقبل منه معونة ، ولقد كانت تشتد به الحال أحيانا ،
إذ لا تكفي تلك الغلة لنفقات عياله ، وتنزل به العسرة فكان يتحملها صابرا ، وكانت
تلك العسرة تشتد ، وتعلو عن الاحتمال إذا كان في سفر ، وانقطع منه الزاد ، فكان لا يهن
ولا يضعف ، ويتعب جسمه أيضا في سبيل راحة نفسه ،

ولقد وجدناه إذا اشتد به الأمر ، واشتدت عليه الفساقه يرد كل عطاء عالما بأن ما فيه من منة أغاظ مما هو فيه من عسرة ، فيقبل ما هو فيه من شدة متفاديا بهذا من العطاء وأذاه .

وكان يحتال على سد رمقه وحاجة عياله بأحدى طرائق ثلاث :
أولاهما - أن يدفعه بالتقاط بقايا الزرع مما يكون في حكم المباح ، فكان ذلك العالم الجليل ، المحدث يحمل حبله على عاتقه ، ويذهب ، فيجمع بقايا الزرع الذي يترك في الأرض مباحا ، وقد كان حريصا على ألا ينزل في أرض أحد إلا بأذنه ، وألا يفسد زرع أحد ، ولذلك روى عنه أنه قال : « خرجت إلى الشجر على قدمي ، فالتقطنا ، وقد رأيت قوما يفسدون مزارع للناس ، لا ينبغي لأحد أن يدخل مزرعة رجل إلا بأذنه » (١)

ويظهر أن ذلك إنما كان يلجأ إليه إذا لم يجد عملا يعمل به ويقتات منه ، ويسد حاجته . فان وجد عملا يعمل به لجأ إليه ، وتلك هي الطريقة الثانية ، ولا يجد غضاضة في أن يعمل مهما يكن نوع العمل مادام فيه نفع للناس وسد لحاجته ، فكل عمل شريف في ذاته ، مادامت النفس تعاو به ، ولا تكون يد صاحبها اليد السفلى ، فلا صغار في عمل يحله الدين ما دامت ترفع الانسان عن خسة المتناول من إفضال الناس ، والمتساقط من أموالهم .

وقد كان يؤجر نفسه للعمل في الطريق ، إن لم يجد ما ينفقه سوى هذه الأجرة ، وكان يكتب بأجرة إن لم يجد ما ينفق منه ، ولقد جاء في تاريخ الذهبي في ترجمة أحمد ، عن علي بن الجهم ما نصه :

« كان لنا جار ، فأخرج إلينا كتابا ، فقال أتعرفون هذا الخط ؟ قلنا هذا خط أحمد بن حنبل ، فكيف كتب لك ؟ قال كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة ، ففقدنا أحمد أياما ، ثم جئنا لنسأل عنه ، فإذا الباب مردود عليه فقلنا ما خبرك ؟ قال سرقت ثيابي ، فقلنا متى دنائير ، فان شئت صلة ، وإن شئت قرضا ، فأبى ، فقلنا : تسكتب لي بأجرة ؟ قال : نعم ، فأخرجت دينارا ، فقال لي اشتر لي ثوبا ، واقطعه

نصفين يعني إزارا ورداء ، وجثنى بورك ، ففعلت ، وجئت بورك ، فكتب لي هذا ، وكان ينسج أحيانا ، ويبيع ما ينسجه ، ويأكل منه ، ولقد حكى الذهبي أيضا عن اسحق ابن راهويه أنه قال :

« كنت أنا وأحمد باليمن عند عبد الرزاق ، وكنت أنا فيرق الغرقة ، وهو أسفل ، وكنت إذا جئت إلى موضع ، اشتريت جارية ، فاطلعت على أن نفقته (أى أحمد) فبيت ، فعرضت عليه ، فامتنع ، فقلت إن شئت قرضا ، وإن شئت صلة ، فأبى ، فنظرت ، فإذا هو ينسج التكاك : ويبيع وينفق » (١)

وترى من هذا أن ذلك الامام الجليل ما كان يحد في العمل غضاضة ، مهما يكن نوع العمل ما دام حلالا ، وفيه نفع للناس ، فهو يقدم للناس ما يسد بعض حاجتهم في نظير أن يأخذ ما لا يسد حاجته ، وهذا قانون الحياة الانسانية العاملة الدائمة ، ذلك لأن أحمد كان رجلا صالحا ، لا يهمه نظر الناس بمقدار ما تهمة نزاهة نفسه ، وعدم نيلها المال إلا من حله ، فهو لا يرى في العمل خسة ، لأن الشرف الذاتي الصحيح إنما يستمد من نفس صاحبه ، وعلوها عن الدنيا ومنة الناس ، وإن الذين يجدون العار في صغار الأعمال هم ضعاف الناس الذين لم يهبهم الله شرفا ذاتيا في نفوسهم ، فيسدون ذلك النقص الانساني ، بهذا التعمد إلى المادى : وكل ميسر لما خلق له

وثالث المسالك التي كان يسلكها أحمد لسد حاجته أن يلجأ إلى الاقتراض ، ويظهر أنه لم يلجأ إليه في كل الأحوال ، وفي كل الأماكن ، بل كان يلجأ إليه ، حيث تسكون غلة قريبة يترقب وجودها ، وحيث يستوثق من أن المقرض ما قصد عطاء ، وفي الحضر ، لا في السفر ، لأن مظنة الوفاء في الحضر قريبة ، حيث الامن والقرار ، وليس السفر كذلك ، وفي بعض الأحوال كان يأخذ قرضا معتزما الوفاء في الميسرة ، والمقرض قد أعطى على نية ألا يأخذ ، فيختلفان ويصر أحمد على رأيه ، فيتم له ما يريد . كان قد استقرض مرة من بعض معاصريه أهل التقى الذين يعرف أن ما لهم نزه لم يجمع إلا من حلال مقدار مائتى درهم أو ثلاثمائة على اختلاف الرواية ، فذهب

(١) راجع ترجمة أحمد الذهبي المشورة في مقدمة السند طبع المعارف بتحقيق الأستاذ أحمد شاكر .

إليه يردها ، فقال له يا أبا عبد الله ما دفعتها ، وأنا أنوى أن آخذها منك ، فقال وأنا ما أخذتها إلا وأنا أنوى أن أردها عليك « (١)

٧١ - هذه هي حال أحمد ، وموارد رزقه آثر السكفاف مع السكدح ، وسغب العيش على أن يقبل منة العطاء ، وقد كان مع ذلك حريصا كل الحرص على ألا يكون في المال الذي يصل إليه شبهة ، فان كان فيه شبهة رده ، وآثر أن يغلب مع الحرمان جانب التحريم على جانب الإباحة ، يروى أنه رهن عينا له في دين عليه ، حتى إذا استطاع وفاء الدين ذهب إلى الدائن ، فوفاه دينه . ولما أراد أن يرد إليه رهنه التبس بعين مشابهة له من مال المرتن فدفع إليه العيين على أن يختار أيهما ، ولسكن أحمد بالغ في الاحتياط لدينه ، فتركهما وقد سدد ما عليه ، أي أنه آثر أن يكون التارك لحقه المؤكد في سبيل ألا يأخذ غير ماله ، لشبهته في أنه أخذ ملك غيره بغير معاوضة توافرت فيها عناصر الرضا الكامل .

وهكذا ترى ذلك العالم الجليل يسير في معاشه على سنة من يعلو بنفسه عن أن تكون يده السفلى ، بل مع هذه الشدة والعسرة ، كان يعلو ، فتكون يده هي العليا ، ولذلك كان مع هذا القل من المال من أسخى الناس بما في يده ، وما يستطيع ، وكان حريصا متشددا في أن يكون ماله حلالا طيبا ، لا شيء فيه من أدران الخبث ، أو شبهة الملك لغيره ، فكان ينطبق عليه بحق ذلك الوصف الكريم إنه كان شحيحا بدينه ، باذلا لماله ، ما أمكن البذل .

رفض الولاية وعطاء الخلفاء

٧١ - قد رأيت كيف كان أحمد ضئيلاً بنفسه أن تهون بمنة العطاء ، وكيف كان شحيحاً بدينه فلا يأخذ المال إلا إذا كان حلالاً طيباً ، لا تعلق به شبهة ، ولا يتدربون بخت ، وكان عند الزكاة يبالغ في الإيجاب على نفسه فيختار أشد الأقوال ، حتى كان يدفع زكاة عن عقاره الذي يغل ، والذي يسكنه ، مستأنساً بفتوى لعمر بن الخطاب ، عندما فتح سواد العراق .

وإذا كان أحمد كذلك في تحفظه وبذله بالنسبة لسواد الناس ، وأهل العلم والحديث ، فهل كان كذلك بالنسبة لمال الخلفاء ، وهو مال جمع من زكوات المسلمين ، ومن فرائض فرضت عليهم ، لينفق في المصالح العامة ، ولا شك أن إعانة العلماء والمحدثين من مصارف ذلك المال ، فإن أخذ فليس أخذه من مال الخلفاء ، ولكن من مال الأمة التي صرف كل همته في نشر حديث رسولها ؟

إن أحمد رضي الله عنه قد كان بالنسبة لمال الخلفاء أعف ، وكان فيه أزهد ، بل كان يبعده عن نفسه إلى درجة النفور منه ، رفض أن يأخذه من ولاية ، ورفض أن يأخذه في عطاء قط ، بل ألا يأخذ من مال من يقبل عطاء الخلفاء ، ولقد شدد في ذلك ، حتى لقد كان يمنع أن ينتفع بأى وجه من أوجه الانتفاع بأى شيء لشخص قد قبل وقتاً ما بعضاً من مال السلطان .

هذا اجمال نفصله ببعض قليل من الأخبار الكثيرة التي وردت عنه في ذلك .
٧٣ - عندما جاء الشافعي إلى بغداد في المرة الثانية التي أقام فيها ، ونشر مذهبه بها ، كان أحمد قد التزم مجلسه ، ما كان يفارقه إلا لطلب حديث في السفر أو الحضر ، ولاحظ الشافعي أن أحمد كان يرحل إلى اليمن لطلب حديث عبد الرزاق بن همام كما بينا ، وكان يلاحظ بعد الشقة ، وعظم المشقة التي يعانها أحمد في هذه الرحلة ، بسبب أنه من المال قل ، وقد كاف الأيمن الشافعي أن يختار قاضياً لليمن ، فوجد أن من التسهيل على أحمد أن يكون قاضياً اليمن ، ليسهل عليه السماع من عبد الرزاق من

غير مشقة ، فعرض على أحمد فرفض ، فكرر العرض ، فقال أحمد للشافعي وهو شيخه ، وله منه التجلة والاحترام : « يا أبا عبد الله إن سمعت منك هذا ثانية لم ترق عندك (١) »

رفض أحمد من شيخه ذلك العرض الكريم ؛ لأنه يريد إلا أن يكون للعلم وحده ، وألا ينال من المال إلا ما كان خاليا من كل شبهة ، ولأنه يرى أن المشقة في سبيل العلم يجب احتمالها ، ولعله أيضا كان لا يميز لنفسه أن يتولى القضاء كأبي حنيفة .

٧٤ - وإذا كان أحمد لم ينل من المال إلا ما كان خاليا من الشبهات ، فهو قد تعفف كانوا عنها عن عطاء الخلفاء ، وتشدد في ذلك ، وهو في أعظم العسرة .

والحق أن الأئمة كانوا في ذلك منقسمين إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول يتعفف عن مال الساطن والخلافة ، ويرفض أن يأخذ ، ويشدد في الرفض ، ومن هؤلاء أبو حنيفة والثوري ، فأبو حنيفة كان يعلم أن في الامتناع عن الأخذ تعريض نفسه للتلقيح ، لأن المنصور كان يختبر بقبوله العطاء مقدار ولائه ، ومع ذلك يمتنع ، ويرجوه بعض رجال المنصور أن يأخذ المال ويتصدق ، ولكنه يأبى أن يدخله في ملكه ساعة من زمان ، مهما تكن العواقب .

والقسم الثاني يقبل عطاء الخلفاء ، ويستعين به في سد حاجات المعوزين وإعانة من يحتاج إلى معونة من أهل العلم ، وفي أن يعيش عيشة تليق بكرامة العلم وأهل الدين من غير اسراف أو تبذير .

وعلى رأس هذا القسم الحسن البصري ، ومالك رضى الله عنه ، فهلك كان لا يتحوب في الأخذ من الخلفاء ؛ لأنه مال المسلمين ، ومن أحق به من أهل العلم الذين وقفوا أنفسهم على تعليم الناس أمور دينهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، وهم في ذلك كالجنود قد وقفوا أنفسهم لحماية الشغور من الأعداء لكيلا يشلوا فيها ثلثة ينفذون منها إلى الأمة ، فانه إذا كان الجنود كذلك ، فالعلماء لمنع الضلال ولئلا يثلم الدين الثلم الذي يصل إلى قلوب الأمة ، فتزل قدم بعد ثبوتها ، وتذوق السوء . وهذا بلا شك

(١) المناقب لابن الجوزي ص ٢٧١ وقد نص على أن الشافعي كان مكينا عند الامين

من مالك نظر ، له أساسه ، ووجهته ، ويزكيه أن مالكاً رضى الله عنه كان يحترم الحال الواقعة من نظام الحكومة أياً كان ، ومهما يكن حال الحاكم ، ساعياً في تغيير نفسه بالاصلاح والموعظة الحسنة ، وذلك يقتضى الاتصال ، لا المقاطعة ، والاتصال يوجب عليه أن يقبل العطية ولا يردها .

والقسم الثالث - وسط بين الأول والثاني يقبل العمل للخلفاء ، ويأخذ العطاء ، ويتصدق به ، وإن كان حظاً مقسوماً ولم يكن عطاءً أخذه ، وهو الشافعى ، فقد تولى الولاية للرشد ، وقبل عطاءه ، ووزعه صدقات ، وقبل أن يأخذ سهم بنى المطلب من الغنيمة ، وقد كان لهم سهم فيها ، للاحاقهم بنى هاشم إذا كانوا معهم فى السلم والحرب ؛ جاهلية واسلاماً .

٧٥ - ولا شك أن أحمد اختار مسلك أبى حنيفة ، وإن كانت حال أحمد تجعل اختياره أعظم ابتلاء ، لأنه كان فقيراً ، فهو يرفض عطاء الخلفاء وغيرهم ويكرى نفسه ، ويكتب للناس الكتب بأجر ، فكان فى رفضه المتجمل الصبور ، وأبو حنيفة كان رجلاً ثرياً له تجارة تدر عليه الدر الوفير . وكان يسد به حاجة الفقهاء والمحدثين الذين كانوا على اتصال به ، وله على أى حال الفضل الكبير .

كان أحمد يرفض عطاء الخلفاء ، ولو كان يحسن ، ولا يخصه ، ولو لم يقصده به شخصه ، بل وصفه ، يروى أن المأمون دفع إلى شيخ من شيوخ الحديث فى عصره مالا ، ليقسمه على أصحاب الحديث ؛ لأن فيهم ضعفاء أراد أن يعينهم على ما خصصوا أنفسهم له ، فما بقى منهم أحد إلا أخذ ما عدا أحمد بن حنبل (١) .

ولقد كان ذلك والمأمون لم يتجه إلى محنة الفقهاء والمحدثين ، واختبارهم ، وحملهم على أن ينطقوا بأن القرآن مخلوق ، إذ أنه لم يتجه إلى ذلك الامتحان إلا بعد أن غادر بغداد غازياً ، ومات فى خرجته هذه بطرسوس ، وقد كان ذلك فى السنة الأخيرة من خلافته .

ولا شك أن عرض العطاء عليه لم يكن ظاهراً من الحاكمين فى عهد المعتصم والواثق ،

بل ظهرت المحنة والأذى ، وكان الابتلاء بالبلاء لا بالعطاء ، وبالمحنة لا بالنعمة ، ويظهر أنه كان بذلك النوع من الاختبار طيب النفس راضيا مطمئنا مستسلما لقضاء الله سبحانه وتعالى ، مستعينا به ، راجيا رحمته دون سواه .

٧٦ - ولما ذهبت دولة المحنة والبلاء ، وجاءت دولة الاطمئنان والقرار ، إذ جاء عصر المتوكل اختبر أحمد اختباراً آخر قاسيا على النفس ، وله عقباه في الجسم ، ذلك أن المتوكل عرض عليه المال الكثير ، والدر الوفير ، وألحف في العرض ، وشددت حاشيته على أحمد فيه ، فأصر أحمد على الامتناع إصراراً شديداً ، ولم يقبل أن يأخذه ويتصدق به ، وكان الخليفة يطلب إليه ذلك ، ولكن أحمد لم يرد أن يدخل ذلك المال في ملكه ساعة من الزمان ، إلا مضطرا ، فهو في نظره المال الذي لا يقار به أهل النزاهة لأن غيره أولى ، إذ هذا المال لسد الثغور واعداد العتاد والقوة ، ومد الجند ، وإغاثة المحتاج ، والبائس والمعتر ، وما كان أحمد يعد نفسه بفضل ما من الله به عليه من الغلة القليلة من أهل الفقر والحاجة .

رد أحمد مال المتوكل ، ولم يقبله ، وإن أكره على قبوله وزعه بين المحتاجين إليه من ذوى الفاقة والتجمل ، وقد كان ذلك الاكراه يحدث أحيانا في أول عصر المتوكل ، إذ السنة أهل سوء لا تني عن تحريضه عليه ، واغراء العداوة بينهما ، حتى لقد قتشت داره بسعاية كاذبة ، أساسها أنه آوى علويا خارجا على الخلافة في بيته ، فكان في مثل هذا الجو الذي تسود فيه الريبة يأخذ المال مكرها ، ويوزعه على أهل الحاجة المتجملين المستترين .

يروى أن وزير المتوكل كتب له . « إن أمير المؤمنين قد وجه إليك جائزة ، ويأمر بك بالخروج إليه ، فإله الله أن تستعفى ، أو ترد المال ، فيتسع القول لمن يبغضك ، (١) فأحمد يضطر لبيد ظلمات السعاية إلى القبول ، ولكنه لا يمسسه ، ويأمر ولده صالحا بأخذه ثم يوزعه في اليوم التالي على أبناء المهاجرين والأنصار ، وغيرهم من أهل التجمل والحاجة ، وكأنه يرى أنهم أولى بمال المسلمين منه ، وقد حرّموا عطاءهم .

ولكن المتوكل يطمئن إلى جانب أحمد كل الاطمئنان ، عند ما تبين له أنه ما عليه من تقى وإيمان ، وابتعاد عن الفتن ، حتى أنه تبلغه نعيمة وسعاية هي : « إن أحمد لا يأكل من طعامك ، ولا يجلس على فراشك ، ويحرم هذا الشراب الذى تشرب » ، فيقول قولاً حاسماً قاطعاً لكل مشاء بنميم : « لو نشر المعتصم وقال لى فيه شيئاً لم أقبله » (١) وعندما بلغ أحمد هذه المنزلة من الثقة قد ترك له المتوكل حرته كاملة فى أن يقبل عطاءه أو يرده ، فكان يرده ، ولو كان قد أرسله ليوزعه على أهل الحاجة والمعوزين ، فإنه روى أنه وجه ألف دينار ليوزعها على أهل الحاجة فقال : أنا فى البيت منقطع عن الناس ، وقد أعفانى أمير المؤمنين مما أكره ، وهذا ما أكره .

٧٧ - وإذا كان أحمد قد عفى عن مال الخليفة ، وأراحه هذا من الاستطالة عليه لعله على الاخذ مكرها ، فان ذلك العالم الجليل التقى لم يهدأ باله كاملاً ، لأن أولاده وذوى قرباه كانوا يأخذون مال الخليفة ، وكان هو ينهائهم فلا ينتهون ، ويقول لهم : « لم تأخذونه ، والشغور معطلة غير مشحونة ، والنبي غير مقسوم بين أهله » (٢)

ثم أنه يقاطعهم ، ولا يؤاكلهم ، ولا يشاربهم ، حتى إنه لا يأكل الخبز الذى يخبز فى تنورهم ، وبنارهم ، فإنه يرى أنه قد خبز له خبز فى تنور مسجور فى بيت ولده ، فرفض تناوله ؛ لأنه يأخذ جوائز السلطان ، ويبلغ الخليفة ذلك ؛ فلا يغضب ، ولا ينقم ، إذ عرف إيمانه وإخلاصه ، ويقول : « إن أحمد ليمنعنا من بر ولده » ، أو يأمر بأعطاء أقاربه وأولاده خفية عنه ،

ولم يكن هل لنا أن نقطع بأن أحمد كان يرى أخذ مال الخلفاء حراماً حرمة لاشك فيها ؟ يظهر أنه كان يشك ، ولا يقطع بالحرمة ، والشك بالنسبة إليه كاف ليمتنع ، ولينزه نفسه ، وألا ينتفع بمن أخذ منه مؤمناً بأنه ليس بحرام .

يروى فى ذلك أنه دخل عليه ابنه يعوده ، وهو مريض ، فقال له يا أبت عندنا شيء قد بقى مما كان يبرنا به المتوكل ، أفأحج منه ؟ قال نعم ، قال : فإذا كان عندك هكذا ،

(١) المناقب ص ٣٦٩

(٢) المناقب ص ٣٨٤

فلم لا تأخذه ، فقال : يا بني ليس هو عندي بحرام ولا مكنتى تنزهت عنه « (١)
إذن فأحمد ما كان يقطع بأن قبول العطاء من الخلقاء حرام ، ولكنه كان يشتبه ،
وحيثما اشتبه ، فإنه ينزه نفسه ، ذلك أنه من الزهاد الأبدال الذى يؤثرون الخصاصة
مع نفس نزهة على المال والثراء والنعمة مع اضطراب النفس بالشك والاشتباه
والحيرة ، فهم يتركون ما يريب إلى ما لا يريب وكذلك كان فى فكره وقلبه
وإيمانه .

علم أحمد

٧٨- ذاع علم أحمد، واشتهر وتحدث الناس بذلك، وهو حي يرزق، بل إن عليه بالحديث والآثر، ذاع، وهو لا زال شاباً يتلقى العلم، ويأخذ عن الشيوخ، حتى إن أحمد بن سعيد الرازي قال فيه، وهو شاب: «مارأيت أسود الرأس أحفظ الحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أعلم بفقهه من أحمد بن حنبل، ويقول له شيخه الشافعي: «أنت أعلم بالآخبار الصحاح منا، فإذا كان خبر صحيح، فأعلمني، حتى أذهب إليه، كوفيا كان أو مصر يا أو شاميا».

ولقد روى المزني أن الشافعي قال: «ثلاثة من عجائب الزمان: عربي لا يعرب كلمة، وهو أبو ثور، وأعجمي لا يخطيء في كلمة، وهو الحسن الزعفراني، وصغير كلما قال شيئاً صدقه السكبار، وهو أحمد بن حنبل»، ويروى حرملة بن يحيى تلميذ الشافعي أنه قال خرجت من بغداد، وما خلقت بها أحدا أروع، ولا أبقى، ولا أفقه من أحمد بن حنبل.

ولقد وصفه الشافعي بالعقل مع علم الرواية والفقه، فقد قال فيه كما روى تلميذه محمد ابن الصباح: ما رأيت أعقل من أحمد بن حنبل، وسليمان بن داود الهاشمي. هذه كلمات الشافعي، وهو العالم الأريب في أحمد الشاب، ولا شك أنه بعد أن تقدمت سنه، وهو لم ينقطع عن طالب الفقه والحديث يوماً، قد نما علمه وعقله، وذاع اسمه وذكره، وخصوصاً بعد أن ابتلى، فأحسن البلاء، وصبر الصبر الجميل، ولم يثن ولم يشك إلى أحد من خلق الله أذى الإنسان، ولننقل بعضاً قليلاً من شهادة معاصريه فيه.

فقد قال علي بن المديني معاصره «ليس فينا أحفظ من أبي عبد الله أحمد بن حنبل، ويقول فيه: «أعرف أبا عبد الله منذ خمسين سنة، وهو يزداد خيراً». ويقول قرينه ومعاصره القاسم بن سلام: «انتهى العلم إلى أربعة أحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، ويحيى بن معين وأبي بكر بن شيبه، وأحمد أفقهم فيه، ويقول فيه: «ما رأيت رجلاً أعلم بالسنة منه».

ولقد قال فيه يحيى بن معين « والله لا نقوى على ما يقوى عليه احمد ولا على طريقة احمد » .

ويقول فيه عبد الرحمن بن مهدي : « هذا أعلم الناس بحديث سفیان الثوري ، ويقول « ما نظرت إلى احمد بن حنبل إلا تذكرت به سفیان الثوري » (١) .

وسفیان الثوري فقيه أثرى زاهد، نزه النفس عفيف، سنخه بالذكر عند بيان من أثروا في نفس احمد بن حنبل ، سواء في ذلك من شاهدتهم وعائنتهم ، ومن تنقوا عنهم من تلاميذهم ، وأصحابهم ، فإن سفیان كان أبرز الآخرين في علم احمد ونفسه .

٧٩ - هذه قبسة أخذناها من المنقول عن العلماء في الثناء على ذلك الامام الجليل الذي بذل نفسه في سبيل ما يعتقد ، ورعى نفسه وكلمها ، واستحفظ أحاديث رسول الله ﷺ وفتاوى أصحابه ، فرواها ودونها ، وتفهمها ، وتخرج عليها ، وأخذ طريقته في الفقه منها ، فكان علمه كله ينتهي إليها .

ولا نريد في هذا الموضع من بحثنا أن نبين مناحي علمه ، ومناهجه في الحديث والفقه ؛ بل إن لذلك موضعه في دراسة آرائه ورواياته وفقهه ، إنما الذي نريد أن نبينه ، ونحن في دراسة تاريخه وأحواله ، والموجهات له - هو كيف تكونت له تلك الثروة العلمية ؟

وإن العوامل التي توجه الناشئ ، أو الشادي ، أربعة - أولها - صفاته سواء أكانت خلقية أم كانت كسبية - وثانيها - الموجهون له من الشيوخ ، ومن يتصل بهم - وثالثها - حياة الشخص ، ودراساته الخاصة - ورابعها - العصر الذي أظله ، والبيئة التي اكتشفته .

ولنتجه إلى بيان كل عامل من هذه العوامل ، ليتجلى للقارئ التوجيهات المختلفة التي سيطرت على هذه النفس الكريمة ، وأنتجت تلك الثمرات الطيبة من علم السنة ، وفقه الأثر ، وآراءه فيما يخوض فيه علماء الكلام ، قاطها مخلصا في بيانها ، ويستوى في ذلك أن تكون الحق الذي لا شك فيه ، أو غيره ، ما دامت هي خلاصة ما انتهى إليه تفكير ، أو ما وجهته إليه دراساته .

(١) في المناقب لابن الجوزي ، وحلية الايام ، وتاريخ الذهبي ، وطبقات ابن السبكي ثناء كثير للعلماء على احمد قد قبسنا منها هذه القبسة ، وارجع إلى الباقي فيها . (٦)

ولنبداً من هذه العوامل بصفاته :

١ - صفاته

٨٠ - اتصف احمد بصفات كانت هي السبب في هذه الشهرة التي اكتسبها ، وفي ذلك العلم الغزير الذي خلفه من بعده ، وسارت الركبان بذكره ، وهذه الصفات بعضها هبات من الله العلي القدير يهبها لمن يشاء من خلقه ، وبعضها صفات اكتسبها بالتربية ، والمران ، والنشأة والتوجيه ، والنزوع إليها .

ولنذكر تلك الصفات بنوعيتها ، ونشير إلى آثارها في تكوين عليه .

٨١ - أول هذه الصفات الحافظة القوية الواعية ، وهي صفة عامة للمحدثين ، وأهل الامامة منهم بشكل خاص ، ولقد اتصف بها مالك ، واتصف بها الشافعي من الفقهاء الذين تركوا ثروة من الفقه والنظر والاستنباط .

وهذه الحافظة هي الأساس لكل علم ونظر ، فلا بد لأهل العلم أن تكون عندهم طائفة حفظوها ، يبنون عليها ، ويستنبطون منها ، وإن العلماء بالنفس في عصرنا الحاضر ، كما كان الناس في الغابر يردون عناصر الذكاء إلى الذاكرة المدركة ، والحافظة الواعية ، والبدئية الحاضرة التي تثير المعلومات التي حفظت في أوقاتها المناسبة .

ولقد آتى الله احمد من هذه الصفة حظاً وفيراً ، والأخبار في ذلك متضافرة يؤيد بعضها بعضاً ، فمن ذلك ما يروى عنه ، فهو يقول : « كنت إذا كر وكيما بحديث الثوري ، فكان إذا صلى العشاء خرج من المسجد إلى منزله ، فكنت إذا كره ، فربما ذكر تسعة أحاديث ، أو العشرة ، فأحفظها ، فإذا دخل ، قال لي أصحاب الحديث أمل علينا ، فأملها عليهم ، فيكتبونها » .

ولقد شهد بقوة حفظه وضبطه معاصروه ، حتى عد أحفظهم ، وحتى لقد قيل لأبي زرعة معاصره : من رأيت من المشايخ والمحدثين أحفظ ، قال احمد بن حنبل .

٨٢ - ولم يكن احمد حافظاً واعياً فقط ، بل كان يتفهم ما ينقل ، فيحفظ أحاديث رسول الله ﷺ وفتاوى أصحابه ، وفتاوى التابعين الذين اشتهروا بالورع . والفقه ، والافتاء ، ويتفهم كل ذلك تفهم العارف المستنبط الذي يبنى على ما عرف ، ولقد

امتاز بذلك الفهم من بين محدثي عصره ، فقد كانوا يكتفون بالرواية دون الفقه والدراية ، وكأنهم تركوا الاستنباط للفقهاء الذين كانوا مختصين بصناعة الاستنباط ، وانطبق عليهم تشبيه أبي حنيفة الذي شبه فيه المحدثين بالصيادلة ، والفقهاء بالأطباء ، أما أحمد فكان يعنى بفهم فقه الآثار ، كما كان الحافظ الراوى الذى بلغ الشأو البعيد فى الرواية .

يقول فى ذلك إسحاق بن راهويه : « كنت أجالس بالعراق أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وأصحابنا ، فسكننا نتذاكر الحديث من طريق ، وطريقين ، وثلاثة ... فأقول ما مراده ؟ ما تفسيره ؟ ما فقهه ؟ فيقفون كلهم إلا أحمد بن حنبل ، وقد كان علمه بالحديث والسنة ، وفتاوى التابعين ، واستنباطه الأحكام منها سبيلاني إن كان إماما فى الحديث وإماما فى الفقه ، حتى لقد قال فى ذلك تلميذه إبراهيم الحربي .

« أدركت ثلاثة لم ير مثله ، ويعجز النساء أن يلدن مثله : رأيت أبا عبيد القاسم ابن سلام ، ما أمثله إلا بحبل نفخ فيه روح ، ورأيت بشر بن الحارث فما شبهته إلا برجل عجم من قرنه إلى قدمه عقلا ، ورأيت أحمد بن حنبل فرأيت كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين من كل صنف ، يقول ماشاء ، ويمسك ما شاء ، (١) .

وجمعه لعلم الأولين والآخرين هو بحفظه للأحاديث ، وآثار السلف ، وفهم فقهها .
٨٣ - والصفة الثانية ، وهى أبرز صفات أحمد ، وهى التى أذاعت ذكره ، ونشرت خبره ، وهى صفة الصبر ، والجلد ، وقوة الاحتمال ، وهى مجموعة من السجايا السكرية ، أساسها قوة الإرادة ، وصدق العزيمة ، وبرد الهمة ، مهما يتعب الجسم فى سبيل ذلك ، ولقد كانت هذه الصفة المزاج الذى اختص به أحمد ، فجمع بها بين الفقر والجود والعفة وعزة النفس ، والآباء وبين العفو ، واحتمال الأذى ، وهى التى جعلته يحتمل ما يحتمل فى طلب العلم ، غير وان ولا راض بالقليل منه ، يحجب الأقطار ، ويقطع الفيافي والقفار ، راكبا إن أسعفته الحال ، وماشيا إن ضاقت النفقة ، فهو يرحل إلى البصرة والكوفة ، وإلى اليمن ، والحجاز ، ويكرر رحلاته طلبا للحديث ، وليتلقى من رجاله ، ويؤجر نفسه لحمل الأمتعة لينال ما يسد به رمقه فى الطريق ، كما يكتب بأجرة وينسخ عند ما يحط الرحال وتضيق به الحال ، بل يصنع بعض ما يعرف من الصناعات ، لياكل من عمل

(١) هذا القول مأخوذ من المناقب لابن الجوزي وحلية الأولياء ، والحافظ الذهبي ، وطبقات ابن السبكي

يده ، اقتداء بالنبيين ، واتباعا لمنهاج الصالحين ، ويفضل ذلك على العطاء ؛ لأن اليد العليا خير من اليد السفلى .

والقوة التي كانت تمدّه بالعون هي هذه الصفة السامية - الصبر ، والجلد وقوة الاحتمال وقوة الارادة ، والعزيمة ، وبعد الهمة ، مع الفقر وشدة الحاجة .

ولما صار له شأن من الشأن ، وتصدى للدرس والافتاء نزل به البلاء الأكبر ، والمحنة العظمى ، فكانت تلك الصفة هي عدته ، وبها كانت أهبته ، فقد صبر ، وصابر الذين أنزلوا به الأذى ، حتى ملوا الأذى ، ولم يهن ، ولم يستكن ، ولم يستخذ لهم ، ولم يجبههم إلى قوهم ؛ لأنه في اعتقاده البدعة ، وإن لم يكن كفرا ، والانحراف ، وإن لم يكن مروفا ، وما كان ذلك الاحتمال إلا بقوة الارادة والعزيمة وقوة الاحتمال والجلد .

ولما من الله عليه بالرخاء بعد الشدة ، ابتلى بالنعمة بدل النعمة ، وكان لابد أن يحسن البلاء فيها ، كما أحسن البلاء في الشديدة ، قدم إليه العطاء كثيرا موفورا ، وهو في الحاجة التي تشبه المخصصة ، وأولاده وأحفاده حوله يقاسون ما يقاسى من هذه الحاجة ، ولكنه علا على ذلك كله بقوة إرادته ، وصدق عزمته ، وبعد همته ، فرد كل عطاء ، لنزاهة نفسه ، وليبقى هو لله خالصا لا لأحد من عباده ، فكانت تلك الصفة في هذا أيضا عدته ، وجهاده هنا لا يقل عن جهاده الأول ، بل هو مثله ، وإن لم يكن من نوعه ، ولكنه أنبل ، وأسمى ، وأعلى ، فرضى الله عنه .

وبما لاشك فيه أن هذه الصفة هي التي كونت له تلك السمعة الذائعة ، وتلك الشخصية الرائعة ، وهي أبرز صفاته ، ومفتاح عظمته ، وسرها ، وعنوانها .

٨٤ - وإن من الحق علينا أن نذكر أن صفة الصبر التي امتاز بها أحمد هي من نوع الصبر الجميل الذي جاء ذكره في القرآن الكريم ، ودعا إليه يعقوب عليه السلام بنيه فيها حكى الله سبحانه وتعالى عنه بقوله : « فصبر جميل » .

والصبر الجميل هو الصبر من غير أنين ، ولا شكوى ، ولا ضجر ، وكذلك كان أحمد رضى الله عنه ، فلقد نزل به الأذى فما أن ، وما ضج بالشكوى ، وكان فيه صاحب الجنان الثابت الذي لا يطيش ، ولا يذهب .

ولندكر لك خبرا يدل على قوة جنانه وثباته ، فأن مما يروى أنه أدخل على الخليفة

فى أيام المحنة ، وقد هولوا عليه لينطق بما ينجيه ويرضيهم ، وقد ضرب عنق رجلين فى حضرته ، واسكنه فى وسط ذلك المنظر المروع ، وقع نظره أيضا على بعض أصحاب الشافعى ، فسأله : « أى شىء تحفظ عن الشافعى فى المسح على الخفين ، فأثار ذلك دهشة الحاضرين ، وراعههم ذلك الجنان الثابت الذى ربط الله على قلب صاحبه ، حتى لقد قال خصمه احمد بن أبى دؤاد متعجبا : « أنظروا رجلا هو ذا يقدم لضرب عنقه ، فيناظر فى الفقه » (١) واسكنها الارادة القوية ، والايمان العميق ، والنفس المفوضة المسلمة ، لقضاء الله وقدره ، وهو الصبر الجميل الذى أخذ نفسه به ، حتى إنه لم يئن عند المرض ، خشية ألا يكون صبره على أمر الله جميلا .

٨٥ — وقد يتساءل القارىء عن سر هذه القوة التى جعلته يحتمل ما احتمل ، ويعلو على الشدائد ، وعندى أن السر فى ذلك أن هذا الرجل العظيم قد اعتر بالله وحده ، وتوكل عليه تعالى وحده ، ولم يحس بعظمة أحد سواه ، ولا امتلاء نفسه بهذا الوجدان العظيم استهان بكل شىء ، استهان بالشدائد ، واستهان بمنزليها ، واستهان بمفاخر الحياة وزينتها ، ورضى من متاعها بالقليل ، ولم يقنع من العمل لله بغير الكثير الوفير . وقد أعطاه ذلك الاعتزاز علوا عن سفاسف الأمور ، فلم يعاق بنفسه درن من حقد ، أو حب انتقام ، ولذلك كان كثير العفو عن يسىء إليه ، يروى أن رجلا قد اغتابه ، ثم قال له يا أبا عبد الله اغتبتك ، فاجعلنى فى حل قال أنت فى حل ، إن لم تعد . ويروى أنه ظهر من بعض إشاراته عدم تقديره لفقه أى حنيفة ، لاختلاف منهاجها ، فقال بعض المتعصبين لأبى حنيفة : « بول أبى حنيفة أكثر من ملء الأرض مثلك ، ثم تركه مغاضبا ، ثم عاد إليه نادما ، وقال له متعذرا يا أبا عبد الله ، إن الذى كان منى كان على غير تعمد ، فأنا أحب أن تجعلنى فى حل ، فقال احمد العظيم فى نفسه : ما زالت قدماى من مكانهما ، حتى جعلتك فى حل » (٢) .

ولا عزازه بالله كان متواضعا متطامنا لعامة الناس ، مقيلا لعثراتهم ؛ فإن المعتز بسير الله يكون غليظ العنق مستكبرا ، والمعتز بالله يكون طيب القلب متطامنا . ولقد حكى عنه تلميذه المروزى ، فأحسن فقال : « لم أر الفقير فى مجلس أعز منه فى مجلس أبى عبد الله

(١) حلية الاولياء ج ٩ ص ١٨٦

(٢) المناقب لابن الجوزى ص ١٢٣

« كان مائلا إليهم ، مقصرا عن أهل الدنيا ، وكان فيه حلم ، ولم يكن بالعجول ، وكان كثير التواضع ، تملوه السكينة والوقار ، إذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا ، لا يتكلم ، حتى يسأل ، وإذا خرج إلى مسجده لم يتصدر ، يقعد حيث انتهى به المجلس » (٢) .

٨٦ - الصفة الثالثة من صفات أحمد التي امتاز بها النزاهة بأدق معانيها ، وكانت في أشكالها وصورها ذات مظاهر عدة ، فهو نزه النفس ، فلم يأخذ قليلا ، ولا كثيرا من مال غيره ، فكان عفيفا في أعلى درجات العفة ، وعيوفا عن أموال الناس في أكل ما يكون عليه الرجل الكامل ، وكان نزيها في إيمانه ، فلم يجعل لأحد عليه سلطانا ، ولم يطق أن ينطق بغير ما يعتقد ، ولا أن يوارى ويدارى ، ولو كان السيف يبرق في يد من يرعد به ، ورضى بانزال الأذى الشديد عن أن ينطق بكلمة فيها مداواة ، فما كان يرضى بالدية في دينه ، وكان نزها في عقله ، فلم ير أن يخوض في أمر لم يخض فيه السلف الصالح ، وكذلك سلك في فقهه ، فوجد أن من نزاهة العقل ألا يفق حيث علم أن لأحد الصحابة فتوى في المسألة التي سئل فيها ، بل كان إذا وجد الصحابة اختلفوا في مسألة لم يوازن بين أقوالهم ، ويختار واحدا منها ، على ضوء ما تؤدي إليه الموازنة المستقيمة ، والقياس الدقيق ، إذا لم يكن نص أو خبر صحيح ، بل يجعل المسألة ذات أقوال ، وللبتلى أن يختار أيها شاء ، إذا لم يكن أحدها أقرب إلى النص من غيره ، فنزاهة الفسك أو الفقه عنده توجب عليه الاتباع المطلق للسلف الصالح ، وليس من شأن الاتباع المطلق أن يخطئ هذا ، ويصوب ذاك من غير نص ، إذ كل واحد منهم من رسول الله ملتزم .

٨٧ - هذه نزاهة مطلقة - أخذ نفسه ذلك الامام الجليل بها ، ولقد دفعته عفة النفس أو نزاهتها على حد تعبيره أن يترك بعض الحلال . وأن يمتنع عن قبول عطاء الخلفاء ، مع تصرّحه لبعض أولاده بأنه حلال يصح الحج منه ، وأنه يتركه تنزيها للنفس . لا تحريما .

وبهذا التضيق الذي سلكه في شأن نفسه ، حتى كان لا يأكل إلا من كسب يده . أو من غلة عقار ورثه ، ويلقى في سبيل ذلك العناء الشديد ، والحرمان من كثير من طيبات الحياة ، ولهذا كان زاهدا ، ولكنه زهد ، ليس أساسه الرغبة عن طيبات

الحياة ، بل أساسه طلب الحلال ، ولسكن لا يطلبه من مال فيه شبهة ، بل من مال يناله من غير أن تصاب النفس في نزاهتها أو عزتها ، ومن غير أن يلجأ في ذلك إلى أحد من العباد .

وكان يرى أن الزهد الذى يلين القلوب ، ويرقق النفوس ليس هو فى الامتناع عن الحلال، ولسكن فى طلبه من غير أن يدنس النفس :

يروى فى ذلك أن أبا حفص عمر بن صالح الطرسوسى قال : « ذهبت إلى أبى عبد الله فسألته ، بم تلين القلوب ، فأبصر إلى أصحابه ، ثم أطرق ساعة ، ثم رفع رأسه ، فقال : يا بنى ، بأكل الحلال ، فررت إلى أبى نصر بشر بن الحارث ، فقلت له : يا أبا نصر بم تلين القلوب ؟ قال : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » فقلت ، فأنى جئت من عند أبى عبد الله ، فقال هيه أيش قال لك أبو عبد الله ، قلت بأكل الحلال ، فقال جاء بالأصل ، فررت إلى عبد الوهاب بن أبى الحسن ، فقلت : بم تلين القلوب ، فقال : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » قلت : فأنى جئت من عند أبى عبد الله ، فاحمرت وجنتاه من الفرح ، وقال لى أيش قال أبو عبد الله ، فقلت قال بأكل الحلال ، فقال : جاءك بالجوهر ، الأصل كما قال ، الأصل كما قال »

وهذه القصة تعطيك منطق أحمد الدقيق فى ورعه وزهده ، فهو ما كان ينقطع عن الحياة وأسبابها ، ومتعها ، بل كان لا يمتنع عن متع الحياة على شرط الدين والخلق الفاضل ، وهو ألا يأخذها من غير حلها ، فهو يطلب الحلال ، ولا يأكل إلا الحلال ، وفى تحرى الحلال ، كانت نفسه معناة ، يترك ما تشبه فيه قل أو جل ، ولا يأخذ إلا ما لا شبهة فيه ، ويكتفى به ، وإن قل ، فنطقه فى هذه الحياة هو منطق الحى القانع الراضى ، الزاهد فى غير الحلال ، مهما تسكن حاجته إليه .

وفى دائرة الحلال الذى لا شبهة فيه يستطيع متع الحياة ، ويستأنس بالصحاب وأهل المروءة ، ويقول : « يؤكل الطعام بثلاث ، مع الأخوان بالسرور ، ومع الفقراء بالايثار ، ومع أبناء الدنيا بالمروءة »

وكان يحب الصداقة والأصدقاء ، ويفهم معناها الدقيق ، ويعرف أن الحياة من غير أصدقاء حياة جافة ذليلة ، ويقول « إذا مات أصدقاء الرجل ذل »

ويسخو ويجود بالخلال القليل الذى ناله من طيبات هذه الدنيا ، ويقول فى ذلك :
لو أن الدنيا تقل ، حتى تسكون فى مقدار لقمة ، ثم أخذها أمرؤ مسلم ، فوضعها فى
فم أخيه المسلم ما كان مسرفاً . وهذا أقصى غايات الجود .

ولقد كان رحمه الله يرى أن الاختصار على الحلال الخالص الذى لا شبهة فيه مرتبة
هى من أعز المراتب نيلاً لا يقوى عليها إلا الأشداء ، ويرى أن القوة الحقيقية للانسان
ليست فى قوة البدن ، ومنة الجسم ، والسكن فى الاستيلاء على النفس ، وحماها على الاختصار
على الحلال ، وألا تسير وراء ماتهوى ، ولقد سئل رحمه الله عن الفتوة ، فقال : « إنها
ترك ماتهوى لما تخشى » أى أن قوة العزيمة والتحكم فى الأهواء والسيطرة عليها هى القوة
كل القوة ، أو هى القوة التى يليق أن يتصف بها الانسان ، ويتميز بها عن سائر
الحيوان .

٨٨ - وأما نزاهة العقل والايمان ، فحسبك فى بيانها ما نقلناه من أخبار المحنة ،
وكيف صابر وجاهد ، وما كان جهاده إلا لينزه عقله عن أن يفكر فى أمر لم يؤثر عن
السلف أن عنوا بدراسته ، وأن يخوض فى مسائل الخوض فيها يؤدى إلى متهات يتيه
فيها العقل ، ويضل ، ولا يقوى على الوصول إلى الحق فى بيدها المتسعة . بل كان
يفوض كل التفويض فى كل المشتبهات التى وردت فى القرآن ، وسيكون لذلك فضل
من البيان نذكره عند الكلام فى آرائه المتصلة بالعقيدة فى ذلك المضطرب الفسيح من
الآراء فى العصر الذى اشتدت فيه الاحتكاكات الفسكورية بين ذوى المنازع المتباينة .
وقد رأيت فى أعمال الخلفاء معه كيف ينزه إيمانه عن أن يأخذ بالتقية ، لأنها منزلة
لا ينزل إليها إلا الذين لا يهتمون الشديدة فى سبيل اليقين ، ورخصة لا يترخص فيها
إلا الذين يضعفون ولا يهتمون ، أما الأقوياء ، فهم ينزهون إيمانهم عنها ، والناس فى
الايمان درجات ، وقد كلف كل مؤمن قدر طاقته .

٨٩ - ولنزاهة عقله وإيمانه ابتعد عن الجدل مع أهل الأهواء والبدع فى نظره ،
لأن عدوى الأفكار تسرى بين المتجادلين بالاحتكاك ، كما تسرى عدوى الأمراض
بالاحتكاك والاختلاط ، وكذلك كان ينهى أصحابه عن الجدل معهم تنزيها لإيمانهم ،
وابتعاداً عن كل مواطن الريب

سأله بعض أصحابه : قائلا أن ههنا من يناظر الجهمية ، ويبين خطأهم ، ويدقق عليهم المسائل ، فما ترى ؟ قال : لست أرى الكلام في شيء من هذه الأهواء ، ولا أرى لأحد أن يناظرهم . أليس قال معاوية بن قرة الخصومات تحبط الأعمال ، والكلام ردى ، لا يدعو إلى خير ، تجنبوا أهل الجدل والكلام ، وعليك بالسنن ، وما كان عليه أهل العلم قبلكم ، فانهم كانوا يكرهون الكلام ، والخوض مع أهل البدع ، وإنما السلامة في ترك هذا ، لم تؤمر بالجدال والخصومات ، وقال إذا رأيتم من يحب الكلام ، فاحذروه (١)

ولقد كتب إليه رجل يسأله عن مناظرة أهل الكلام ، والجلوس معهم ، فأملى هذا الكتاب جوابا عن السؤال

« احسن الله عاقبتك ، الذي كنا نسمع ، وأدركنا عليه من أدركنا أنهم كانوا يكرهون الكلام ، والجلوس مع أهل الزيغ ، وإنما الأمر في التسليم والانتهاز إلى ما في كتاب الله ، لا تعد ذاك ، ولم يزل الناس يكرهون كل محدث من وضع كتاب ، وجلوس مع مبتدع ، ليورد عليه بعض ما يلبس عليه في دينه » (٢)

وهكذا ينهج الأمام أحمد منهج الأمام مالك ، فقد كان مالك رضى الله عنه يكره الجدل ، ويعتد الجدل بعيداً عن لب الدين وحقيقته ، وأن أهل الجدل هم الذين أفسدوا على الناس أمور دينهم ، وعلى هذا المنهاج سار أحمد .

ولقد كان أبو حنيفة والشافعي رضى الله عنهما على غير ذلك المسلك ، فلقد كان أبو حنيفة يجادل الجهمية وغيرهم ، ويلجئ بالحجة عليهم ، ويسد عليهم طرائقهم ، والشافعي كان قوى الجدل ، شديداً في الخصام ، ولكن لطالب الحق ، لا للغلب ، وإن كتبه كلها صور من المناظرة الجيدة المستقيمة ، وكل وما يختار من المناهج ، والمسالك .

٩٠ — وأما نزاهة فقهه ، فقد كان حريصاً على ألا يخرج عن السنة ، وكان متبعاً للرسول وللصحابة في كل فقهه ، وما يخرج من آراء ، فأساسه ما روى عن النبي ﷺ وعن التابعين ، وكان حريصاً كل الحرص على ألا يرد في فقهه حديثاً نسب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا إذا عارضه أقوى منه ، وكان يقول : « من رد حديث رسول الله

(١) تاريخ الذهبي (مقدمة المسند ص ٢٢) جمع المعارف بتحقيق الاستاذ الشيخ احمد شاكر

(٢) الذهبي مقدمة المسند ٨٥

صلى الله عليه وسلم ، فهو على شفاهاة مكة » وكان يقول : « ما كتبت حديثا عن النبي ﷺ إلا وقد عملت به »

وإذا لم يجد الحديث ولا السنة عن الصحابة اجتهد في تخريج المسألة على منهاج من سبقه غير مبتدع سبيلا غير سبيلهم ، وكان ينهى عن الاجتهاد في مسألة لم يتكلم فيها أو في منهاجها أحد من سبقه ؛ ولذلك كان يقول لخاصة تلاميذه « إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام »

وهكذا تراه يحرص على أن ينزه فقهه عن الخروج على السنة ، ويقيده بقيود لا يرى غيره حرص على تقييد فقهه بها ، ولتؤجل بيان ذلك بيانا كاملا الى الكلام في فقهه ، إذ هو لب موضوعنا ، وغاية بحثنا .

٩١ - الصفة الرابعة من صفات أحمد التي امتاز بها الاخلاص ، والاخلاص في طلب الحقيقة ينقى النفس من أدران الغرض ، فتستنير البصيرة ، ويستقيم الإدراك ، ويشرق القلب بنور المعرفة وهداية الحق ، ولقد وجدنا الأئمة الثلاثة الذين سبقوا أحمد في الاجتهاد الفقهي ، وكان لنا حظ دراستهم ، قد اتصفوا جميعا بهذه الصفة ، وامتازوا بها ، ذلك لأن الهداية لا تكون إلا ما يقذف الله في قلبه بنور الاخلاص إذ الاخلاص لله سبحانه وتعالى هو أن يحب الشيء لا يحبه إلا لله ، فلا يطلب العلم لمراء أو جدال ، أو لاحتياز مجالس ، أو لجاه عند ذي سلطان ، ومن ارتقى بعلمه إلى هذه الرتبة ، لاتعلق به غواشي الامتراء ، ومعوقات الهوى ، بل يتجه إلى الحقيقة اتجاها مستقيما ، لاعوج فيه ، ومن اتجه إلى طلب الحقيقة مستقيما وصل إليها بنور الله ، ونطق بالحكمة لهداية الله ، ووصل إلى الغاية من أرب طريق ، وأهدى سبيل .

ولقد آتى الله أحمد حظا كبيرا من الاخلاص في طلب علم الكتاب والسنة ؛ فما طلبه لجاه الدنيا ، ولا للشهرة والسمعة ، بل كان ينفر منهما أشد النفور ، ويتمنى ألا يكون شيئا مذكورا عند الناس ، وكان يتجنب الرياء ويباعده ، ويبالغ في الابتعاد عنه ، حتى إنه كان لا يظهر المحبرة ، ليدكره الناس بالحرص على الكتابة بل كان يقول : « إظهار المحبرة من الرياء » . وكان يؤثر ألا يسمع به أحد . فكان يقول : أريد النزول بمكة ألقى نفسي في شعب من تلك الشعاب ، حتى لا أعرف » وكان ينفس على

من أخجل ذكره تلك المنزلة النفسية العالية ، فيقول : « طوبى لمن أخجل الله عز وجل ذكره » .

ولهذا المعنى الجليل الذى سيطر على نفسه ، فجعلها خالصة لربه كان يستقل ما يقوم به من من عبادات ولا يستكثر ما وقع له من محنة . فكان لا يذكرها ، ويستتر آثارها ولا يحب أن يعلم الناس ما نزل به ، وكان بعيداً عن الزهو والافتخار ، لا يفتخر بعمل قام به ، ولا يزهو على أحد بحال هو عليها ، قال يحيى بن معين فيه : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل ، صحبته خمسين سنة ، ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الصلاح والخير ، (١) .

وذلك لأنه كان لا يستكثر ما قدم ، والنفس اللوامة المؤمنة ، تتهم صاحبها بالتقصير ولا تدل على الناس بالعبادة .

٩٢ - الصفة الخامسة التى امتاز بها أحمد ، وجعلت لدروسه وكلامه مواقع من نفس سامعية لا تزول - الهيبة ، فلقد كان مهيباً ، من غير خوف ، وموضع الاجلال والاحترام من غير رهبة ، وكانت له هيبة ، حتى فى نفس أساتذته ، فقد كان بعض أساتذته يمزح مع بعض تلاميذه ، غير عالم بمكان أحمد من المجلس ، فلما علم بمكانه لا مهم ، إذ لم ينبهوه إلى وجوده ، حتى لا يمزح ، وهو فى حضرته .

وكانت الشرطة تهابه ، حتى عند ما كانوا يساورون داره ، فإنه يروى أن الشرطى المنوط به القيام بالليل ذهب ليناديه ، فهاب أن يطرق بابه ، وآثر أن يطرق باب عمه ، ويصل إليه من ذلك الباب ، بعد أن تستأنس نفسه بذلك اللقاء المهيّب .

أما هيبة تلاميذه له ، فأعظم من ذلك ، وإن كان هو الأليف المألوف ، الموطأ السكف الذى يجانب العلو والاستكبار ، فأحد تلاميذه يقول فيه : « كنا نهاب أن نرد أحمد فى الشيء ، أو نحاجه فى شيء من الأشياء » ويقول أحد معاصريه الذين تلمذوا له : « دخلت على إسحاق بن إبراهيم ، وفلان وفلان من السلاطين ، فما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل ، صرت إليه ، أكله فى شيء ، فوقع على الرعدة حين رأيت من هيئته » .

ويقول أبو عبيدة القاسم بن سلام : « جالست أبا يوسف ، ومحمد بن الحسن ، ويحيى ابن سعيد ، وعبد الرحمن بن مهدي ، فهاهبت أحدا منهم ، ما هبت أحمد بن حنبل » .
٩٣ - وما سر هذه الهيبة التي كانت لذلك الرجل العظيم ؟ إنها هبة الله سبحانه وتعالى ، يهبها لمن يشاء من عباده ، ففي الناس رجال آتاهم الله قوة نفس ، وقوة وجدان ، وإشعاعا روحيا ، يجعلهم يوثرون في غيرهم ، ويستولون على نفوس الناس ، لا بقوة السلطان ، ولكن بقوة الوجدان .

ولقد كانت كل أحوال أحمد من شأنها أن تنمي هذه الهبة ، وتقوى تأثيرها ، وتجعل أثرها بالغاً ، فجد لا مزاح فيه قط ، حتى إنه ليحسب أن كل مزحة مجة من العقل ، أو غفوة من الوجدان الديني ، وهو لا يريد أن يمج عقله ، ولا يريد أن يخفي نار الوجدان لأن في قوة الاحساس الديني ارهاقا للإيمان ، وهو مع جده في صمت دائم ، لا لغو في القول ولا تأثيم ، وهو في حضرة أصحابه يأبى أن يتكلم إلا في العلم ، ويأبى إلا أن يصمت والصمت والابتعاد عن اللغو يجعلان المتصلين بالشخص متحفظين في حضرته ، وبذلك تنمو المهابة ، فإنه لا يبذل نفس الإنسان ، ولا يسقط المهابة ، ويذهب بالروعة أكثر من لغو القول والمراء والجدل ، والمكاثرة والمهاترة ، وقد تجافى أحمد رضى الله عنه عن ذلك ، وابعده عن قلبه ولسانه .

وإنه مما نمي مهابته ، تلك المحنة التي نزلت به فتحملها بجلد وصبر ، فأنها أشاعت ذكره ، وتحدث الناس بأمره . وإن حسن السمعة ، وبعد الصيت ، وجميل الذكر ، تجعل لمجلس صاحبها روعة ، وهيبة في نفوس الناس ، فإن السنة الخلق بالشأن ، تلقى مهابة صاحب الشأن في النفس ، وخصوصا إذا كان أهلا لذلك ، وله في نفسه جلال وتقى وهدى الإيمان ، وبرد اليقين .

٩٤ - وإنه مع هذه الهيبة ، وذلك الجلال كان حسن العشرة ، ولم يكن فظا غليظا ، بل كان طلق النفس والوجه ، كريم الخلق سجع المعاملة لينا رفيقا ، وكان شديد الحياء ، يستحي من الله حق الحياء ، ويستحي من الناس ، فلا ينافرهم ، ولا يكابرهم ، قال بعض من لا قوه في وصفه : « ما رأيت أحدا في عصر أحمد بمن رأيت أجمع منه ديانة ، وصيانة

وملكا لنفسه ، وفقها ، وأدب نفس ، وكرم خلق ، وثبات قلب ، وكرم مجالسة ، وأبعد
عن التماوت » (١) .

ويقول فيه غيره : « كان أحمد من أحيي الناس ، وأكرمهم نفسا ، وأحسنهم عشرة
وأدبا ، كثير الأطراق والغض ، معرضا عن القبح واللغو . لا يسمع منه إلا المذاكرة
بالحديث ، وذكر الصالحين والزهاد في وقار وسكون ولفظ حسن ، وإذا لقيه إنسان
بش به ، وأقبل عليه ، وكان يتواضع للشيوخ تواضعا شديدا ، وكانوا يكرمونه
ويعظمونه » .

٩٥ — هذه أخلاق أحمد ، وهي هدى نبوى كريم ، اتبع فيه هدى النبي ﷺ ،
واتخذ منه قدوة ، وأخذ بقوله سبحانه وتعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة »
فكان يتعرف أخلاق الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ويأخذ نفسه بها أخذًا شديداً ،
من غير مراعاة ، أو سعي وراء الشهرة التي كان يتملأ بها إذ جاءته ، فكان الرفيق ،
وكان ذا الحياء المهيّب ، والمتواضع المستكين ، المعتمز بالله العلى القدير .

٢ - شيوخه

٩٦ - يعتبر من شيوخ احمد كل من تلقى عليه فقها ، أو أخذ عنهم سنة ، أو روى عنهم حديثا ، سواء أكان قد انتقل إليه ، أم كانوا معه في بغداد ، ولقد أحصى ابن الجوزي في مناقب احمد - شيوخه عدا . فتجاوزت حسبتهم المائة ، وإذا كان شيوخه بهذه الكثرة العددية ، فلسنا نستطيع أن نقول إن لهم جميعا أثرا بليغا في نفسه ، وربما كان منهم من اقتصر على أن يروى عنه الحديث ، بل ربما كان منهم من كان لقاءه به مرات معدودة لا توجهه توجيهها عليها ، وإن كانت تعطيه رواية سنة لم يكن قد عرفها من قبل ، وربما أعطته سنداً آخر لسنة معلومة لديه من قبل بسند صحيح .

واسكنوا ونحن ندرس الشيوخ الذين أثروا فيه لا يهملنا كثيرا تعرف كل من تلقى عنهم ، بل يهملنا فقط تعرف من وجهوه من بين من تلقى عليهم ، ويكون توجيههم متفقا مع نزوعه النفسى ، ومع جهوده التى عرفناها من بعد ذلك ، ولقد يكفيننا في هذا تعرف واحد أو اثنين في بيان حياة الامام ، فإنه ليكفيننا في دراسة أى جنيفة أن نعرف حمادا شيخه ، و ابراهيم النخعي الذى نقل حماد عليه ، كما أنه يكفيننا في تعرف حياة الشافعى ، أن نعرف مالكا الذى وجهه التوجيه الفقهى . ومن تلقى عليهم من أهل الحديث في مكة مثل سفيان بن عيينه ، وهكذا .

٩٧ - وكذلك نحن في دراسة احمد يكفيننا أن نعرف من الذى نرى فيه ذلك النزوع إلى السنة ، ثم من الذى وجهه مع السنة إلى الفقه ، وإنه ليرز لنا في ذلك شخصيتان لهما بالغ الأثر في توجيهه إلى السنة ، وفي توجيهه إلى الفقه ، وإن الأولى الأثر البليغ ، حتى لو نت الثانى بلونها ، واختلط على الناس أن له فقها ، أو إن عليه كله سنة لا فقه فيه .

أما الشخصية الأولى فهى التى استقبلته ووجهته أو نمت نزوعه ، وجعلت منه طالب سنة دوبا في طلبها ، يحوب لأجلها الأقطار ، ويقطع الفيا فى والقفار ، وهى شخصية هشيم ابن بشير بن أبى خازم ، فقد علمنا أنه عند ما نزع إلى الحديث واستخار الله ، واختاره في السادسة عشرة من عمره اتجه إلى هشيم هذا ، ولزمه نحو أربع سنوات ، وقيل خمسا تسكون فيها ، وكل اتجاهه اتجاهها كاهلا إلى السنة ، وروى عن هشيم ، وعن سائر محدثي

بغداد طائفة كبيرة من السنة ، ولسكن هشيمًا كان أبرز الشخصيات أثرًا في حياته في مدى هذه السنوات الأربع ، أو الخمس على اختلاف الروايات . وهي السن التي تسكونت فيها النواة الأولى لعلمه في الحديث .

٩٨ - وقد ولد هشيم سنة ١٠٤ وتوفي سنة ١٨٣ ، وقد تلقى على بعض التابعين كعمرو بن دينار، والزهرى ، وغيرهما ، وكان ذا عناية بمعرفة آثار ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم ، وقد آلت إليه حلقة أهل الحديث ببغداد ، فعند ما اتجه أحمد إلى الحديث ، وجده شيخ هذه الحلقة ، وقد كان ذا سمعة حسن في الاسلام ، وذا هبة وتأثير في نفس أحمد رضى الله عنه ، حتى إنه ما كان يسأله قط هبة له وإجلالا لعلمه ، وما سأله مدة ملازمته له إلا مرة أو مرتين ، وقد كان يسبح بحمد الله بين رواية حديث . ورواية آخر ، ويقول لا إله إلا الله يمد بها صوته . وكأنه يذكر جلال الله سبحانه وتعالى ليمتليء بذلك الله نفسه ، فيستشعر تقواه عند رواية حديث رسوله ، ونقل أصول دينه .

وحياة هشيم هذا كانت انصرافا إلى العلم بحملته ، جاهد في سبيله ، حتى شق الطريق لنفسه ، وكان أحمد ما أخذ منه علم الحديث فقط ، بل تلقى عنه الجهاد في طلبه ، وتحمل المشقة في سبيله .

كان هشيم بخارى الأصل ، وقد أقام أبوه في واسط . ويروى أنه كان طباح الحجاج بن يوسف ، ولما انتقلت أسرته إلى بغداد ، كان يصطنع هذه الصناعة ، وقد اشتهر بأعداد بعض أنواع أطعمة السمك ، وإجادته . فلما نزع ابنه منزع العلم لم يكن ذلك مالوفا في أسرته ، بل كان غريبا عليها ، فكان ينهيه عنه ، ويلومه عليه ، ولسكن ابنه كان يتحمل اللوم صابرا ، ويطلب الحديث مجاهدا ، وكان يحضر مجالس أنى شية القاضى ، وينظره في الفقه ، وقد حدث أن مرض مرة ، فتفقده أبو شية ، ففعل له إنه عليل ، فقال قوموا بنا ، حتى نعوذه . فقام أهل المجلس جميعا يعودونه اتباعا للقاضى ، حتى جاءوا إلى منزل بشير الطباخ ، وأخبر بذلك ، فلما خرج القاضى وصحبه ، قال بشير لابنه هشيم : « يا بني قد كنت أمتك من طلب الحديث ، فاما اليوم فلا ، صار القاضى ينجى إلى بابي ! متى أملت أنا هذا » (١) .

انصرف هشيم بعد ذلك إلى طالب الحديث ، ورحل الرحلات المختلفة في طلبه فرحل إلى مكة ، وفيها التقى بالزهرى ، وأخذ منه نحواً من مائة حديث ، وقيل ثلاثمائة ، ورحل إلى البصرة ، وإلى السكوفة ، وإلى غيرهما من الامصار طلباً للحديث ، وأخذ من رجاله ، واستمر على ذلك دائماً لا يني ، حتى صار له شأن فيه أى شأن ، ثم صارت له الرئاسة فيه في بغداد ، فكانت له حلقة ، وإن كان له منافسون مثل وكيع ، فقد نفس هذا عليه تلك المنزلة ، وجهد أن يسقطه ، بل أن يداسه ولكن سمعته العلمية ، وأمانته كانت فوق هذا المنال ، وحسبك أن تعلم أن من رواه مثل مالك بن انس ، ولقد قال فيه حماد بن زيد « ما رأيت في المحدثين أنبل من هشيم ، وكان بعض المحدثين ذوى القدم الثابتة يفضل على إمام الحديث سفيان الثوري ، ولقد اثبت عليه مالك بن انس رضى الله عنه ونفى أن يكون بالعراق عالم بالحديث سواه ، فقال : « وهل بالعراق أحد يحسن أن يحدث إلا ذاك الواسطي (يعنى هشيم) » ^(١)

٩٩ — وإذا كان هشيم هذه المنزلة في الحديث ، وعند جمهور المحدثين في عصره ، حتى رضى مالك بالرواية عنه ، فإن أحمد كان موقفاً إذا توجه إليه في نشأته ، فقد جلس إلى إمام الحديث في عصره ، والتممه ، وقد كان كما قلنا ذا تأثير شديد في نفس أحمد رضى الله عنه ، حتى كان يحفظ كل ما يلقيه عليه حفظاً ، فإنه يروى أنه قال رضى الله عنه : « حفظت كل شيء سمعته من هشيم ، وهشيم حى ، قبل موته »

ولا شك أن هذه الحفظ ، وإن كان أساسه قوة الحافظة والعناية عند أحمد ليدل أيضاً على عظيم منزلة هشيم في نفسه ، وأنها كانت المنزلة العالية التي جعلته ينصرف بكل جهوده إلى الحديث ، والسنة والفقه .

١٠٠ — ويظهر أن أحمد قد تلقى على هشيم حديثاً كثيراً وفقها قليلاً ، ولذلك كان لابد أن يسد ذلك النقص بشخصية أخرى ذات قوة تسد ذلك النقص ، وقد وجدت تلك الشخصية في الشافعى رضى الله عنه ، وقد اتصل به أحمد عقب وفاة هشيم ، عند ما ذهب يحج بيت الله الحرام ، فالتقى بالشافعى ، وأثار إعجابه ، وكان إعجابه بعقله الفقهى ، وقوة استنباطه ، والضوابط والمقاييس التي جعلها أصول الاستنباط ، فقد كان ذلك

اللقاء في الزمن الذي كان فيه الشافعي يلقي دروسه بالمسجد الحرام ، وهو يفكر في وضع أصول الاستنباط ، عقب أن عاد إلى مكة ، بعد مدارس محمد بن الحسن فقه الرأي ببغداد ولقد صرح أحمد حين استمع إليه بأن إعجابه بعقله الفقهي ، لا بروايته ، وصرح بذلك لصاحبه اسحق بن راهوية ، فقد قال له كما نقلنا في صدر حياته : « يا أبا يعقوب اقتبس من الرجل ، فإنه ما رأيت عيناى مثله » .

فهو قد أعجب بعقل الشافعي ، وتفكيره الفقهي ، ولذا كان يقول فيه كما ذكرنا من قبل . « يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلا يقيم لها أمر دينها ، فكان عمر عبد العزيز على رأس المائة ، وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة » .

وإذا كان إعجابه بمنصبه على أخص ما امتاز به الشافعي ، وهو التفكير الفقهي ، والضبط العقلي ، ووضع أصول الاستنباط ، فهو يعد الموجه الثاني لأحمد بن حنبل رضى الله عنه وجهه هشيم في صدر حياته إلى الحديث ، وطلب السنة ، واستخرج الفقه من بين ثناياها على أن تكون هي المقصد الاسمي ، ووجهه الشافعي إلى أصول الاستنباط ، فتوجه أحمد إلى الينبوعين ، وإن كان طلب السنة أغلب ، والعمل الفقهي أقل بالاضافة إلى الأول ، وإن لم يكن هو في ذاته قدرا قليلا ، بل كان حظا كبيرا .

١٠١ لم يكن اختصاصنا بالذكر لهذين الشيخين الجليلين من شيوخ أحمد ليغض من قدر ما تلقاه من غيرهما ، فإنه قد تلقى عن غيرهم الكثير من السنن والآثار ، وكان يرحل إلى بعضهم الرحلات المختلفة ، وكل له فضل في القدر الذي وصل إليه أحمد من العلم ، وإن كانت المقادير متفاوتة متنوعة الاسناد والروايات ، وإنما خصصنا هذين الامامين بالذكر ، لأننا نحسب أن لهما فضل التوجيه ، لأفضل التكوين ، وإنما التكوين كان في حرصه على التلقي ، ومقدار ما تلقى ، ونوعه ، وقد تلقى كثيرا ، وعن كثيرين لا يحصيه العدد ، وقد شرحنا في اثناء سرد حياته كيف كانت هجرته في طلب العلم ، ومن هاجر اليهم ، وفيما ذكرنا هناك ما يغني عن الذكر هنا

٣ - دراسات أحمد الخاصة

١٠٢ - وإذا كنا قد قصرنا عدد الموجهين لأحمد على اثنين من العلماء ، فذلك لأن أحمد كان موجهه الأكبر من نفسه ، ونزوعه ، وميولها ، ونمتها الدراسات الشخصية المختلفة ، ونوع الحياة الذي اختاره ، واكتفاؤه من المال بالقليل ، وعدم اتجاهه إلى مطمح مما تطمح إليه نفوس الرجال ، وترنو إليه أنظارهم ، فكانت حياته كلها للحديث وفقه السنة .

لقد طلب الحديث والسنة ، وكان كلما أوغل في الطلب اشتدت الرغبة ، كمن يذوق طعاما فيستطيعه ، إذ الرغبة بعد الذوق تشتد ، بيد أن نهمة العلم لا تشبعها كثرة ، ونهمة الطعام يشبعها القليل ، لأن الأولى معنوية ، والمعانى لا تنخم ، والثانية مادية ، وقليل المادة ينخم .

ولقد كان أحمد يجهد في دراساته متنقلا بين الأُمصار ، وقد ذكرنا في صدر حياته كيف كان كثير الانتقال الى الأمصار ، والجوب في القفار ، ومحبرته في رحاله ، وهو يقول بلسان المقال كما يقول بلسان الحال : « مع المحبرة الى المقبرة » ، ولا يتمتع وهو السكمل الذي يعده الناس إماما على أن يعمل في طلب العلم ما يعمل الشهاب الذي يستقبل العلم ، وكان يقول ، وهو الامام الحجة المقتدى به : أنا أطلب العلم الى القبر .

١٠٣ - والسؤال الذي يحول بالنفس ، أ كان أحمد في هذا الجهاد العلى ، وفي هذه الأخلاق ، ليس له مثال سابق يسلك سبيله ؟ لاشك أن نزوع أحمد في صدر حياته ، وتوجيه شيخه هشيم ، ثم توجيه الشافعى ، وغيره كسفيان بن عيينة امام الحديث في مكة وعبد الرزاق امام الحديث في اليمن ، لاشك أن هذا كله مع تذوقه للسنة وفقهها كان من أشد المرغبات له ، ولما سكن العالم في بحوثه ، والتقى في ورعه ، والصابر في بلائه ، لا بد أن يكون له رجل من الماضين اتخذ مثل منهجه ، وبينهما من المشاكاة النفسية ما يجعل منهجه يسرى الى نفسه ، ويجرى منها مجرى الدم في العروق .

وليس من الصعب أن نعثر على بعض تلك الشخصيات الاسلامية التي كانت بينها وبين أحمد مشاكاة نفسية جعلته يسلك مسالكهم ، وربما كان مداه في سلوكه

أوسع من مداهم ، وإن تلك المشاكاة جعلتهم قريبين من نفسه ، فتتبع مروياتهم ، وكان بها عليما .

فلقد وجدنا في تراجمه أن عبد الرحمن بن مهدي كان يقول عن أحمد رضى الله عنه « هذا أعلم الناس بحديث سفیان الثوري » ،^(١) ثم وجدنا ابراهيم بن اسحاق الحرابي يجعل بعد الصحابة سلسلة من التابعين وتابعيهم حفظوا السنة ، فقال في هذه السلسلة : « سعيد ابن المسيب في زمانه ، وسفيان الثوري في زمانه ، واحمد بن حنبل في زمانه » ،^(٢) فسفيان يعد وسط السلسلة وأحمد نهايتها ، وإن أحمد لم يلتق بسفيان ، ولم يتلق عنه مباشرة بل تلقى علمه عن طريق تلاميذه ، وعلم رواياته عن طريق من أخذوها عنه ، ولسكن المشاكاة النفسية بينهما قرنتهما في سلسلة واحدة .

وهناك شخصية أخرى تتقارب وتنشابه مع أحمد ، وهي شخصية عبد الله بن المبارك رضى الله عنه ، فلقد قال في ذلك احمد بن الحسن الترمذى : « ما شبهت احمد بن حنبل الا بابن المبارك في سمته وهيئته »^(٣)

١٠٤ - وإذا كان الرواة المعاصرون الذين عاصروا الرجال الثلاثة قد عقدوا تلك الصلة الرابطة بين أحمد وهذين الامامين الجليامين ، وأحمد قد أدرك عصرها ، فقد مات ثانيهما ، وهو يافع قد أخذ أهفته لطلاب الحديث ، ونال منه بعضا في مجلس هشيم وأخبار العلمية من العلماء تصل إلى الشباب من الطلاب ، وتودع نفوسهم بحملة بخيال رائع يشير تفكيرهم ، وتجعلهم يسعون اليهم ، ورب شاب جذبه إلى علم معين سمعة العالم فيه ، وما يثيره خيال الشباب نحوها .

ولقد وجدنا أحمد عند ما ابتدأ يدرس تتطالع نفسه إلى لقاء ثاني الامامين ، ولسكن المنية عاجلته ، فلم يتمكن من لقائه ، ولذلك جاء في المناقب لابن الجوزي أن أحمد بن حنبل قال : « طلبت العلم ، وأنا ابن ست عشرة سنة ، وأول سماعي من هشيم ، سنة تسع وسبعين ومائة ، وكان ابن المبارك قدم في هذه السنة ، وهي آخر قدمة

(١) الحلية - ٩ ص ١٦٤ .

(٢) الحلية ص ١٦٦ .

(٣) ص ٦٦ من مقدمة المسند طبع المعارف .

قدمها ، وذهبت إلى مجلسه ، فقالوا : قد خرج إلى طرسوس ، وتوفي سنة إحدى وثمانين ومائة» (١)

١٠٥ - ولذلك وجب علينا أن نلم المامة موجزة بحياة هذين الامامين لنعرف وجه المشاكلة بينهما وبين أحمد ، وأن أحمد اتخذهما استاذين له من سيرتهما ، ومروياتهما ، وكان يتلاقى معهما في أكثر ما اختلط لنفسه من سلوك في هذه الحياة .

أما أولهما فهو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، وهو فقيه محدث كان بالكوفة ، وعاصر أبا حنيفة ، وكان الفقه يغلب على أبي حنيفة بأقيسته واستحسانه ، والحديث والسنة يغلبان على سفيان باتباعه واقتدائه . ووقوفه عند المنقول لا يعمده ، وقد اشترك مع أبي حنيفة في مجافاة ذوى السلطان ، والابتعاد عن تولى القضاء ، وإذا كان لأبي حنيفة بعض التشيع على نحو ما بينا في حياته ، فقد كان سفيان خاليا من ذلك تماما على محبة لعل ، ولسكن وضعه في منزلته من الزمان ، ولقد عرف عنه أنه كان في الشام يذكر مناقب علي ، حيث لا شيعه له وفي العراق يذكر عثمان ، حيث لا ناصر له ، ويذكر مناقب عمر وأبي بكر بالكوفة ، ويذكر مناقب علي عند الناصبية الذين ناصبوه العداء هو وذريته رضى الله عنهم .

ولقد وجدنا سفيان يعيش من ميراث له آل إليه من عم له كان يقيم ببخارى ، فناله حلالا ، عفا به عن طلب المال في ذلة ، وعن قبول هدايا الخلفاء جملة ، ولعل أحمد كان يحاكيه في الاكتفاء بأكل غلات ماله الموروث ، وإن كان ماورئه أحمد قليلا ، وماورئه سفيان لم يكن قليلا ، بل كان كثيرا فيما يبدو من مجموع أخباره .

ولقد كان غليظ القول مع الخلفاء ، لا يخشى في الله لومة لائم ، التقى بأبي جعفر المنصور في المسجد الحرام ، فأخذ أبو جعفر بتلبابه ، وواجهه الكعبة ، وقال له برب هذه البنية ، أى رجل رأيتني ؟ فقال : برب هذه البنية بش الرجل رأيتك .

ولقد طالبه للقضاء فتحامق ، حتى لا يوليه لمحقه ، ثم فر هاربا ، واستمر في هروبه ، حتى تولى المهدي ، ولم تسكن حاله معه خيرا من حاله مع أبيه ، كان يفاجئه بكلمة الحق المرة ، في وقت قد استساغ فيه كلمات الثناء واستمرأها ، لقيه في الحج ، فقال له :

« حج عمر بن الخطاب فأنفق في حجيته ستة عشر ديناراً ، وأنت حججت ، فأنفقت في حجتك بيوت المال » .^(١)

ولقد غضب عليه المهدي ، كما غضب أبوه من قبل ، ففر هارباً من وجهه ، حتى مات غريباً رحمه الله ، ورضى عنه ، ومات سنة ١٦١ ، فقد مات قبل أن يولد أحمد رضى الله عنه بثلاث سنوات ، ولسكنه كان استاذ بهسيرته ، وحديثه ، كما علمنا ، وإن خلال أحمد قد رأيناها في سفیان قبله ، فرأينا سفیان ينتقل في طلب الحديث بين العراق والشام والحجاز واليمن ، حتى يقول له القائل . « إن للسباع مأوى تأوى إليها ، وأنت لا مأوى لك »

وكان يؤثر الخمول والعزلة على الشهرة ، كما رأينا أحمد من بعده ، وهو يؤثر الابتعاد عن الخلفاء على القرب منهم ، وإن رسالته إلى بعض أصحابه ناطقة بهذا ، وما هي ذى :

« إنك في زمان كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتعوزون أن يدركوه ، ولهم من القدم ما ليس لنا فكيف بنا حين أدركناه على قلة علم ، وقلة صبر ، وقلة أعوان على الخير ، وفساد من الناس ، وكدر من الدنيا ، فعليك بالأمر الأول ، والتمسك به ، وعليك بالخمول ، فإن هذا زمن خمول ، وعليك بالعزلة ، وقلة مخالطة الناس ، فقد كان الناس إذا التفتوا ينتفع بعضهم ببعض ، فأما اليوم فقد ذهب ذلك ، والنجاة في تركهم ، فيما نرى . وإياك والأمراء أن تدنو منهم ، وتخالطهم في شيء من الأشياء ، وإياك أن تخدع ، فيقال لك : تشفع ، وتدرأ عن مظلوم . أو ترد مظلمة ، فإن ذلك خديعة إبليس ، وإنما اتخذها فجار القراء سلباً ، وكان يقال : اتقوا فتنة العابد الجاهل ، والعالم الفاجر ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، ومالقيت من المسألة والفتيا ، فاعنتم ذلك ، ولا تنافسهم فيه ، وإياك أن تكون كمن يحب أن يعمل بقوله ، أو ينشر قوله ، أو يسمع من قوله ، فإذا ترك منه ذاك عرف فيه ، وإياك وحب الرئاسة ، فإن الرجل تكون الرئاسة أحب إليه من الذهب والفضة » .^(٢)

(١) تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٦٠

(٢) حلية الأولياء ج ٦ ص ٣٧٧

وهكذا ترى سفيان يدعو إلى الخمول والعزلة، وترك الرياسة، وهذا ما أخذ أحمد به نفسه، وكأنه كان يجب دعوة ذلك الامام الجليل .

ولقد علمت أن أحمد كان كثير الصمت لا يمزح قط ، وكأنه في هذا كان يجب دعوة سفيان ، إذ يقول : « تعلموا العلم ، فاذا علمتموه ، فأكظموا عليه ، ولا تخلطوه بضحك ، ولا لعب ، فتمججه القلوب » (١).

وهكذا نرى أخلاق أحمد وسمته ، وسلوكه ، هي أخلاق ذلك الامام الجليل ، ولذلك نعهده من أساتذته ، مع تباعد الزمان وعدم اللقاء ، فأحمد لم يكن حافظا لحديثه فقط ، بل اتخذ منه استاذًا وإمامًا ، ولذلك كان يقول رضى الله عنه عن سفيان : « لا يتقدمه في قلبي أحد » ، ويصفه وحده بالامام ، فيقول لبعض أصحابه : « أتدرى من الامام ؟ الامام هو سفيان الثوري » (٢).

وهذا صريح في أنه قد اتخذ من علمه ومن سيرته استاذًا له ، وإمامًا يقتفى طريقه ، والأرواح جنود مجنونة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ، والائتلاف قد يكون من غير تلاق ، وقد يغنى الكتاب عن الخطاب .

١٠٦ - هذا هو سفيان الثوري الذي لم يلقه أحمد ، وتلميذه له .

أما الثاني وهو عبد الله بن المبارك ، فقد حاول أن يلقاه واسكنه مات سنة ١٨١ قبل أن يتمكن أحمد من التلقي عليه ، وقد سلك هو الآخر مسلك سفيان الثوري ، واتبع طريقه وكان أشد الناس استمساكا بمنهاجه ، ونزوعه إلى الورع .

وابن المبارك هذا الذي رغب أحمد ، في لقائه مسالكه هي مسالك أحمد في الورع والأخلاق ، والابتعاد عن السلطان والجاه ، ولسكنه كان كثير المال ، موفور الرزق راغد العيش ، وكثير العطاء والنفقة ، فاذا رأينا أخلاق أحمد كاملة ، ورأينا فيها قدرة الفقير الصابر ، فابن المبارك كانت فيه هذه الأخلاق ، ولكن معها حمد الغنى الشاكر ، وكلاهما كان الفقير يعتز في مجلسه ، ولا يكون أعز منه في هذا المجلس ، فالنفسان متشاكلتان متشابهتان في المعدن والجوهر ، وإن اختلفا في الغنى والفقر ، والمظهر

(١) الحلية ج ٦ ص ٣٦٨ .

(٢) تاريخ ابن كثير الجزء العاشر ص ١٣٤ .

وكان ابن المبارك يجمع إلى جلال العلم، فضل المجاهد الغازي، فهو العالم الذي استبحر من الفقه والحديث، وهو المجاهد الذي غزا، ونشر الاسلام، وكان كثير الحج، وحيثما سار أدر الدر الوفير، وكان يؤثر على نفسه ذا الحاجة.

ويروى في ذلك أن أنه مر وهو في طريقه إلى الحج بمزبلة قوم، فرأى فتاة تأخذ طائرا ميتا، وتلقه، فسألها عن أمرها، فقالت: أنا وأخي هنا ليس لنا شيء إلا هذا الازار، وليس لنا قوت إلا ما يلقي على هذه المزبلة، وقد حلت لنا الميتة منذ ثلاثة أيام وكان أبونا له مال، فظلم، وأخذ ماله، وقتل، فأمر ابن المبارك برد الازار، وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟ قال: ألف دينار فقال: عد منها عشرين تسكفينا إلى مرو وأعطاها الباقي، فهذا أفضل من حجبنا هذا العام، ثم رجع^(١).

وكان رحمه الله يطعم الطعام المثل الجيد، وهو صائم، ويكتفي من الدنيا بالقليل فكان ماله للفقراء، ويعين به المحتاجين من طلاب العلم، كانت غلته مائة ألف عام فكان ينفقها كلها على العباد، وأهل العلم، وأهل الفاقة، وربما امتدت يده إلى رأس المال، وهو فوق هذا لا يترف نفسه، حتى لا يبطر معيشته، فيفسد دينه، ولقد عده كثيرون من العلماء إمام الورع، والحديث، والفقه الذي خلف سفيان الثوري، فقد سئل المعتمر بن سليمان: من فقيه العرب؟ فقال: سفيان الثوري، ثم سئل من فقيه العرب بعد سفيان؟ قال عبد الله بن مبارك.

وكانت عنايته بعلم الآثار والسنن بالغة، فقد كان يقضي الليل في الاطلاع عليها، وقد قيل له: إذا صليت لم لا تجلس معنا؟ قال أذهب مع الصحابة والتابعين، فقيل له، ومن أين الصحابة والتابعون، قال: اذهب، فانظر في علي، فأدرك آثارهم وأعمالهم، فما أصنع معكم!! أتم تغتابون الناس.

وكان وهو الرجل الذي رزقه الله رزقا حسنا، يحذر الناس من حب الدنيا، ويقول: حب الدنيا في القلب، والذنوب احتوشته، فتي يصل الخير إليه!! ويرى أن الزهد سلطان دونه سلطان الملوك؛ لأن الزاهد لا يحتاج إلا إلى الله،

والمملوك لا يستغنون عن الناس ، ولذلك سئل من الناس ؟ فقال العلماء ، ومن المملوك ؟ فقال الزهاد ، ومن السفلة ؟ فقال الذين يعيشون بدينهم (١) .

هذا هو ابن المبارك الذى حاول أحمد لقاؤه ، والأخذ عنه ، فلم تواته الاحوال ولم تمكنه السن ، وهذا الذى كان يشبه به أحمد ، كما بينا فى صدر كلامنا ، وقد رأيت أن أحمد قد وجد فيه السجايا التى اشتهر بها أحمد من بعده ، فالجود والزهد ، والعيش بالقليل ، والابتعاد عن المملوك ، وعدم جعل الدين سبيلا للرزق ، وعدم الدنيا فى الدين ، كل هذه كانت فى أحمد بمنزلة السجايا ، وهى فى ابن المبارك كذلك ، فهو أستاذه وإن لم يلقه .

١٠٧ — ونحن إذ نذكر هؤلاء الذين لم يلقهم ، لانغمط حق الذين التقى بهم ، لأنهم كانوا من الزهادة والورع والعناية بالسنة ، والابتعاد عن البدع ، ما جعلهم أسوة لأحمد وقد سنوا له الطريق ، وهم نقلة علم أولئك الذين غابو عنه ، ولم يره ، ولم يلتق بهم ، فسفيان بن عيينة ، وأبو بكر بن عياش ، ووکیع بن الجراح ، وعبد الرحمن بن محمد ويحيى بن سعيد القطان ، وغير كثير ، كل هؤلاء كانوا أساتذة لأحمد ، وكان لهم فضل من الورع والتقى ، وكل أنار له السبيل .

ولكن ذكرنا سفيان الثوري ، وصاحبه ، لأن الأمام أحمد قد كان يشبهه فى أخلاقه بهما ، ولأنه كان كما تدل أقواله وسيرته ، وروايته يميل كل الميل اليهما ، فلا بد أنه اتخذ منهما مثالا عاليا ، استقام على منهاجه ، وبينه وبينهما من المشاكاة النفسية ، ما يجعل علمهما وخلقهما يسريان اليه ، والتأثر بالمثل العالية ، لا يقل عن التأثر بالموقف ، يزيد ، لأنه يوجد الميل والنزوع ، والاتجاه دائما .

٤ - عصر أحمد وتأثيره فيه

١٠٨ كانت حياة أحمد رضى الله عنه فى العصر الذى نضجت فيه كل عناصر العصر العباسى، فقد نضج فيه كل شىء، وأتى أكاه، وسواء أكان حلوا، أم كان مرا، وسواء أكان مريئا، أم كان وبيئا، فهو نضج الشىء، بخواصه على أى حال كانت هذه الخواص. فمن الناحية السياسية استقرت الأمور للدولة العباسية، ولم ينازعها منازع ذو قوة تحسب حسابها، فالخوارج قد غلت شوكتهم، ولم يعد لهم فى هذه الدولة شأن، والعنويون من بعد الرشيد لم تسكن لهم قوة يصاولون بها بنى عمهم، وينزلون، فلم يخرج منهم خارجة لا تغلب عليها بغير عناء.

ولسكن إذا كانت الدولة قد استعصمت على الخارجين عليها من غيرها، سواء أكانوا من الأقربين لها، أم كانوا من غيرهم، فقد ابتدأ التنافس والتنازع بين أعضائها، وكانت ولاية العهد من مظاهر ذلك، إذ يحاول الخليفة أن ينقض عهد من سبقه، وكانت الفتنة بين الأميين والمأمون أولى هذه المظاهر، وقد انتهت بقتل الأميين، وغلبة المأمون، ولسكنها نهاية لم تسكن محمود المغبة فى كل نواحيها، بل كانت سيئة المغبة فى أظهرها، ذلك أن المأمون انتصر بسيف بنى فارس، إذ كانت المعركة بين الأميين والمأمون معركة بين الجيش الفارسى، والجيش العربى، فلما انهزم الأميين كان انهزامه هزيمة للعرب، لم تغل لهم كلمة فى الحكم العباسى.

١٠٩ - وقد استقرت الأمور واستقرارا تاما بعد ذلك. فانصرف المأمون إلى الجهاد ومن بعده المعتصم والواثق، وصار للدولة الإسلامية قوة مرهوبة، ولسكنها فى ذات نفسها تحمل عوامل ضعفها، فإن أولئك الخلفاء اعتمدوا فى سلطانهم على الأعاجم، فاعتمد المأمون أولا على الفرس، واعتمد المعتصم من بعده على الترك، فاصطنع منهم قوته، واتخذهم عدته فى الحروب، ثم كانوا من بعد ذلك عوامل الضعف فى الدولة، فقتلوا الخلفاء، واستباحوا حماهم، واستبدوا بالأمم دونهم، بل استبدوا بهم استبدادا شديدا، وهتكوا كل حرمة دينية كانت تحصنهم أو تحميهم، فانقسمت الدولة الإسلامية من بعد ذلك دولا، وتوزعت أوزاعا، ولم تجمعها جامعة سياسية من بعد.

١١٠ وإذا كانت هذه مظاهر السياسة ، ونضجها في الغاية التي تأدت إليها ،
وابتدأت بغرسها ، وانتهت بشهراته ، وقد أدرك أحمد بعضه ، وعائنه ، وهو العربي
الشيبياني الذي كان جده من المجاهدين في إنشاء هذه الدولة ، والذي كان أبوه محاربا ، ولسكنه
لم يعيش حتى يرى ذل العرب ، فلم تكن تلك الحال هي التي ترضى أحمد ، ولم تكن
مظاهر سخطه عليها حربا يعلنها ، فلم يكن من رجال السيف ، ولا تكوين طائفة يحرضها ،
فلم يرتض أن يكون مقوضا لبنين الدولة الإسلامية ؛ إذ أن كل تحريض على فتنة يفك
من عرا الدولة عروة ، ولم تكن مظاهر غضبه نقدا لخلفائها وولاتها ، ولو ما المناصرينها
ومؤيديها ، فلم يكن من دأبه التجريح والتأنيب ، بل كانت مظاهر غضبه مما يتفق مع
سمته وأدبه ، وهو ألا يتصل بها ، وأن ينصرف إلى العلم ، وأن يقطع نفسه عن
السياسة ، وما ينبعث منها .

١١١ - وكان مسلك أحمد هذا وسطا بين مسلك إمامين سبقاه ، هما مالك رضى الله عنه
والآخر أبو حنيفة ، فأبو حنيفة تقدم في درسه ، ونشط الناس عنهم في بعض عبارات
جاءت في أثناء فتاويه ، وحرص الناس على معاونة الخارجين من بني علي في بعض عبارات
وردت أيضا في فتاويه ، فهو لم يسكت عنهم ، ولم يعلن الخروج عليهم إعلانا صريحا ،
ويدعو إلى ذلك في عبارات يسوقها لذلك ، بل كان يلوم ، ويثبط ، ويحرض في عبارات
تجىء في سياق كلامه ، وإن كانت تدل في الجملة على أنه لا يرى الخروج عليهم بغيا ، ولا
يشارك الخارجين فعلا ، ومالك كان لا يرى جواز الخروج ، ولا يحرض عليه ، ويؤالي
هؤلاء الولاة رجاء اصلاحهم ، وحملهم على رفع المظالم ، وأن يردم عن امساءة لحسن .
أما أحمد فقد كان بين ذلك قواما ، لم يدع الى فتنة ، ولم يحرض عليهم ، ولم يتعرض
لهم تصریحا ، ولا تلويحا بقول فاقده ، ولم يوالهم مع ذلك ، ولم يقبل عطاء ، بل كان
الزاهد في ما لهم الراغب عن عطائهم ؛ المنصرف للعلم انصرافا تاما .

١١٢ - ولقد قارن ذلك الغلب الفارسي ، أو بعبارة أدق قارن حكم المأمون أن
صار الغلب في النفوذ العلمي وفي الحكم لطائفة هي المعتزلة ، كان يرى أحمد مسلكها
في الاستدلال على العقائد انحرافا عن منهاج السلف الصالح ، وانصرافا عن السنة ، وما كان
ذلك هو العلم المنشود ، أو الطلبة التي يتجه إليها طالب العلم والحقيقة ، وقد زاده ذلك

انصرفا عن الخلفاء والأمراء ، ولكنه لم يصمت بجوار ما رآه بدعا من المعتزلة بل كان ينهى الناس عن مجالسهم ، والمجادلة معهم ، والأخذ بطريقتهم ، ويعمد من يخوض معهم في حديث قد أدلى بدلوه معهم ، وفتح على نفسه باب البدع ، تدخل عليه من غير حساب .

ولسنا نترك شأن المعتزلة مع أحمد من غير أن نشير بكلمة تبين كيف تخالفت مناهجهم الفسكرية ومناهج أحمد ، بما ترتب عليه ما كان بينه وبينهم من خلاف .

١١٣ - لقد كان وجود المعتزلة أمراً لا بد منه في العصر العباسي ؛ لأنه وجد في هذا العصر زنادقة يعمنون آراء مفسدة للجماعة الإسلامية ، ويتناجون بينهم بأمور هادمة للإسلام ، ويدبرون الأمر كيداً لأهله ، وتهوينا لشأنه ، ومنهم من كانوا يريدون نقض الحكم الإسلامي ، وإحياء الحكم الفارسي ، كالحادث من المقتنع الخراساني الذي خرج على الدولة العباسية في عهد المهدي ، ولذلك جرد الخلفاء السيف للقضاء على الزنادقة ، وشجعوا العلماء الذين يردون أقوالهم الهادمة ، وقد تصدى لأولئك المعتزلة ونازلوهم بالحجج الدامغة ، فقربهم الخلفاء منهم ، وأدنوا مجالسهم ، وفتحوا لهم باب قصورهم في عهد المنصور ، وعهد المهدي ، ثم في عهد المأمون والمعتصم والواثق كان منهم الوزراء ، والحجاب ، والسكران ، بل كان المأمون يعد نفسه منهم ، فكان يلحن بحججهم ، ويناقش على ضوء أصولهم ، وبذلك كان لهم في عهده النفوذ العلي ، والادارة والسلطان .

ولقد كان تجرد هؤلاء المعتزلة للرد على الزنادقة والمجوس وغيرهم من التهموم معهم في جدال ذودا عن الإسلام سبباً في أن أخذوا يسلكون في الاستدلال للعقائد طرائق جديدة لم تسكن مألوفة في الاستدلال عند السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، ثم هم في هذا السبيل قد قبسوا من الفلسفة ما يرهفون به سلاحهم ، ثم هم كانوا مأخوذون بطرق خصومهم في الهجوم والدفاع ، فسرت إليهم مسائل مما يخوض فيه أولئك الخصوم ثم تورطوا بعد ذلك في إثارة مسائل فلسفية لم تسكن مما يفكر فيه السلف الصالح .

تكلّموا في إرادة الإنسان وأفعاله وسلطان الله عليها ؛ وتكلّموا في صفات الله سبحانه وتعالى : أهى شيء غير الذات أم هي والذات شيء واحد ؟ تكلّموا في كل ذلك ، فأعرض الفقهاء مستنكرين عملهم .

١١٤ - ذلك كله قد رآه منهم الفقهاء والمحدثون ، وقد خالفوا به طريقة الصحابة والتابعين في الاستدلال للعقائد ، وكان طبعيا ألا يلتقي هذان الفريقان اللذان يخدمان الدين الاسلامي ؛ لاختلاف عقليتهما ومنطق تفكيرهما ، فالفقهاء والمحدثون يتعرفون دينهم من الكتاب والسنة ، وعملهم العقلي في فهم نصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة ، واستنباط الأحكام من عبارتهما أو إشارتهما ، أو الاجتهاد بالرأى إن لم يكن نص ، هذا أقصى ما يسرون فيه . أما المعتزلة ، فيرون إثبات العقائد بالأقيسة العقلية ، وهم لذلك يستخدمون المنطق والبحوث الفلسفية .

ولقد كان مجرى الأمور يوجب أن يكون كل فيما خصص فيه ، هؤلاء لفهم نصوص الكتاب والسنة ، واستنباط قانون إسلامي منهما ، أو تحت ظلها ، وأولئك لبيان العقيدة الاسلامية ، والذود عنها بالطرق التي تلزم الخصوم وتقطعهم ، ويستعان في ذلك بكل ما يؤدي إلى الانتصار ، والفلاح في النزاع .

واسكن المأمون ومن وليه في الحكم إلى عصر المتوكل حاولوا أن يحملوا العلماء على بعض آراء المعتزلة في مسألة خلق القرآن كما بينا في موضعه من القول ، فكان الالتحام الشديد بين الفريقين ، وكان المعتزلة بسبب ذلك هم خصوم الفقهاء والمحدثين ، ولذلك نفر أحمد رضي الله عنه ، ووقع به الأذى الشديد على ما علمت .

١١٥ - ولنترك الكلام في الدولة ، ومن ينتمى إليها من العلماء ، ومن أظلمت بحمايتها ، ولنتجه إلى الكلام في علم الفقه والحديث في هذا العصر .

لقد قلنا إن ذلك هو عصر النضج في كل شيء ، وفيه نضج الفقه ، واستقامت طرائقه ، والتقى العلماء ، وتدارسوا الفقه فلم يكن الفقه بصريا ، وكوفيا ، وشاميا ، وحجازيا ، بل صار الفقه كله إسلاميا ، فقد كان التقاء العلماء ، والرحلات المختلفة ، سببا في أن علم علماء كل مصر بما وصل إليه علماء سائر الأمصار ، وتدارسوا بينهم ما وصلت إليه جهود العلماء من التابعين وتابعيهم ، والتقى بذلك الفقه الحجازي بالفقه العراقي ، ووجدنا الشافعي جامعا في كتبه بين ثمرات الجهود المختلفة لفقهاء الأمصار من عراقيين ، وشاميين ، وحجازيين .

ودونت المجموعة الفقهية لكل طائفة من المجتهدين ، فدون مالك موطأه ، ودون

تلاميذه من بعده مدونة الفقه المالكي الجامعة ، ودون أبو يوسف كتبها حاوية بعض فقهه ، ودون الامام محمد مجموعة شاملة للفقه العراقي ، ثم دون الشافعي ذلك المبسوط العظيم الذي كان صورة حية ناطقة بما كان عليه الفقه من حياة في ذلك العصر الذي ازدهر ، ونضج كل شيء يتصل بالفقه والاستنباط ، وسمى ذلك المبسوط بالأم ، وسماه بعض المتقدمين المبسوط .

ولقد وجد أحمد تلك الثروة الفقهية العظيمة ، فقرأ الكثير منها ، وتلقى بعضها تلقيا ، فقد تلقى عن الشافعي في رحلته الثانية التي أقام فيها ببغداد ، وكان قد دون رسالته ، ومبسوطه الذي رواه الزعفراني ، وعلم ما جاء به ، ومن قبل قد طالع على كتب فقهاء العراق ، ويقول الرواة إنه أعرض عنها بعد أن قرأها ، وإنهم إن لم يقولوا هذا ، فإن مساسكه يخالفها ، ولا يتلاقى معها في عامة أحواله ، اطالع أحمد على كل الثمرات النقية ، فتغذى منها عقله وفكره ، وسواء أكانت نتائجها في نفسه متلاقية مع أصلها ، أم غير متلاقية ، فإنها كانت بعض ما قدم له من غذاء عقلي ، التقي بغيره من علوم السنة ، فتكون ذلك الفقه الذي غلب عليه الأثر ، حتى كادت فتاويه تسمى آثارا ولا تسمى فقهها .

ولقد كان من أظهر مظاهر نضج الفقه في ذلك العصر الذي عاش فيه الاتجاه في الفقه إلى وضع السكليات ، وضبط أساليب الاستنباط ، وهو ماسمى من بعد أصول الفقه ، وقد تولى عبء ذلك الشافعي رضي الله عنه ، فقد ابتدأ يفكر في الفقه تفكيراً كلياً ، بعد أن كان مقصوراً على الفتاوى ، والحلول الجزئية لها . ووضع في ذلك رسالته التي حذبها وسائل الاستنباط ، وضوابطه ، وأقام الأدلة على صحة هذه المقاييس الضابطة وقد ذكرنا في دراسة الشافعي رضي الله عنه أنه ابتدأ يصنع ذلك الصنيع عند ما أقام بمكة ، بعد أن اطالع على الفقه المالكي المدني والفقه العراقي ، وأخذ يوازن بينهما موازنة الخبير الفاهم الذي يرد الفروع إلى أصولها ، وكل المسائل إلى عناصرها الأولى المشتركة بينهما وبين غيرها ، وكان ذلك فيما بعد سنة ١٨٤ إلى عودته إلى بغداد حاملاً ثمرات تفكيره ، وقد اتصل أحمد بالشافعي مرتين إحداها بمكة في هذه الإقامة بها ، والثانية ببغداد ، عند ما جاء ينشر ثمرات تفكيره بها .

وقد تلقى بهذا الالتقاء المتكرر ، والذي دام طويلاً مدة إقامة الشافعي ببغداد أصول

الفقه التي استنبطها ذلك الامام الجليل ، وكان لها مكان في تفكير أحمد . واسترعت نظره ، وجعلته يعجب بعقل الشافعي ، ويقول لصاحبه: إن فأنك عقل هذا الفقي لا تدركه، وجعلته يلتزم الشافعي مدة إقامته ببغداد ، وقد قاربت أربع سنوات ، وقد ذكرنا في دراستنا لشيخه مقدار انتفاعه من الشافعي رضي الله عنه .

وعلى ذلك نقرر أن أحمد تلقى من عدة روايات فقهية في ذلك العصر الذي نضج فيه كل شيء واستوى على ساقه - العلم في الدين وغيره ، وانتفع به ، وتغذى منه غذاء صالحا ، واستطاع أن يهضمه مع ما أمده به من عناصر علمية مختلفة تمثلت في نفسه ، وكان منها ذلك المزيج العلمي، الذي كان سنة، وكان فقها .

١١٦ - وقد نضج في عصر أحمد علم الحديث ، وذلك لأن دراسة السنة والآثار لم يتكامل نموها قبل عصر أحمد ، فقد كانت الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة . ولكن لم توضع ضوابط لمعرفة صحيحها من غيره ، وتميز الصادق من غير الصادق ، وهم عمر بن عبد العزيز يجمع السنة الصحيحة لينشرها بين الناس ، ولكنه مات قبل أن يتم ما هم به ، وسلك العلماء مسالك تدوين السنة، فجمع مالك موطأه ، وجمع مسند الشافعي ، وآثار أبي يوسف ، وآثار محمد ، وغيرهما من آثار فقهاء العراق ، ولكن إلى الآن لم توجد الصحاح الجامعة. فوطأ مالك رضي الله عنه، فيه الآثار التي صححت عند مالك ، وجمعتها من آثار الصحابة الذين اتخذوا المدينة مقاما. وآثار العراقيين جل أسنادها ينتهي إلى الصحابة أو التابعين الذين اتخذوا العراق مقاما ، وكذلك الشاميون، حتى إذا جاء النصف الثاني من القرن الثاني كانت الهجرة ، والرحلات المختلفة في طاب الحديث فكانت الرحلة إلى بلاد الحجاز، يستمعون فيها إلى حديث أهل الحجاز ، فيستمعون إلى سفيان بن عيينة في مكة ، وإلى مالك في المدينة ، وكانت الرحلة إلى البصرة ، وإلى الكوفة ، لتلقى الآثار الصحاح التي تنتهي إلى الصحابة والتابعين ، وكذلك كانت الرحلة إلى اليمن ، وإلى الشام، لنقل الصحاح من الأحاديث التي أثرت عن الصحابة والتابعين الذين حاولوا في هذه البلاد المختلفة .

ففي عصر أحمد كان الجمع بين أحاديث الأقطار المختلفة ، وطبيعة ذلك الجمع الأحاطة

بالأحاديث الواردة في الأبواب الفقهية المختلفة ، ودراستها دراسة مقارنة في إسنادها وفيما يستنبط منها ، والموازنة بينها من حيث القوة في حال تعارضها ، وتعرف الناسخ من المنسوخ ، وهكذا .

ولا شك أن الدراسة الفقهية عند محاجة الأقاليم دون تبادل الروايات المختلفة دراسة لا تخلو من نقص كان يكملها القياس ، والاستنباط ، أما بعد أن تلاقت المرويات المختلفة ، فهي دراسة صحيحة كاملة لفقه الحديث ، وما يستنبط منه .

ولقد جاء أحمد في ذلك الميدان ، فكان السابق ، وكان المجاهد ، وكان الحافظ ، ولعل مسنده أول جامع لأحاديث الأمصار ، حتى صار إماما ، كما توقع له أحمد ، ولذلك فضل بيان ترجمته إلى مقامه من البيان والشرح .

١١٧ - ولم يكن نضج السنة فقط في الجمع بين أحاديث الأمصار ، بل كان في الدراسة ، وقد ابتداء مالك بفحص الرجال الذين يروى عنهم فحص الصـيرفي الماهر للدرهم ، ثم بنقد الأحاديث بعرضها على الكتاب والمشهور من السنة ، وجاء الشافعي فدرس الأحاديث المتصلة ، والمرسلة ، والمنقطعة ، وقوة كل منها في الاستدلال ، ومراتبها وما يقبل منها عند التعارض ، وما يرد ، ثم سادت في العصر دراسة السند كاملا من الراوى إلى الرسول ﷺ ، ولم تكن العناية في عصر أبي حنيفة ومالك وغيرهما ممن كانوا على قرب من التابعين إلا بمن يتلقون عنه ، فلا يهم مالكا إلا من ينقل إليه ، لأن كثيرين كانوا من التابعين ، ولذلك كانوا يقبلون المرسلات من الأحاديث ، لأن العبرة عندهم بمن نقل إليهم ، والعهد كان قريبا من التابعين ، ولما بعد العهد ، وطال السند في عصر الشافعي ، ومن جاء بعده ، غنى العلماء بدراسة السند من حيث علوه ، ونزوله ، ومن حيث اتصاله ، وانقطاعه ، وعنوا بدراسة كل رجال السند ، لأن الحاجة كانت شديدة ، لكي تعرف العدالة في كل رجاله إلى أن يصلوا إلى عصر الصحابة رضوان الله سبحانه وتعالى عليهم ، لكي تطمئن النفس إلى الرواية ، ويكون المروى حجة في العمل ملزمة

جاء أحمد في ذلك العصر الذي نضجت فيه السنة ذلك النضج ، فأوفى في دراسة السنة على الغاية ، وكان حريصا كل الحرص على طلب السند والعلة ، لا يأخذ الحديث

إذا كان راويه لا زال حيا يمكن أن يلاقيه ، بل يسافر إليه ما أمكنت الرحلة ، ويأخذ منه ما تنسب روايته إليه ؛ ولا يكتفى برواية الحاضر ، ما أمكن له أن يسافر إلى الغائب ، وكان ذلك منه مبالغة في الورع في طلب الحديث والاستيثاق من صدقه .

هذه مظاهر نضج الدراسة لسنة النبي ﷺ في عصر أحمد رضي الله عنه ، وقد أفاد من ذلك كثيرا ، وكانت الطرق ممتدة لهذه الدراسة ، وتعدد الرواة ، وكثروا ، وتخصصوا في فن الرواية ، وعكفوا ، وتميزت علوم الحديث عن الفقه ، بفناء أحمد ، وطلب الأحاديث والآثار من ينابيعها ، والعاكفين على دراستها ، كما طلب الفقه من رجاله ، ومن غلب عليهم ، فكان إماما في الحديث والفقه .

١١٨ - وإذا كان ذلك العصر هو عصر التقاء الثمرات الفقهية في كل الأمصار كما نوهنا الآن فإن ذلك الالتقاء يصحبه احتكاك فكري بين العلماء ويشير مناظرات ، والاختلاص يمنع أن نكون مهازات ، وذلك ما كان ، فإن ذلك الالتقاء الفكري ، قد صحبه مناظرات يقصد بها أحيانا الوصول إلى الحق ، وأحيانا يقصد بها تغليب مذهب فكري على مذهب آخر ، أو تغليب رأى على رأى آخر .

فهذا الشافعي يقيم ببغداد أمدا في صدر حياته ، وفي أول قدمته قدمها ، فيدخل في مناظرات قائمة بين فقهاء العراق ، ومناصري الفقه المدني في مسألة الشاهد واليمين ، وذلك أن الفقه المدني يحين الحكم بشاهد واحد ، ويمين صاحب الحق ، إذا لم تسكن لديه بينة كاملة ، ولا يلجأ إلى يمين المدعى عليه إلا إذا لم تسكن شهادة قط ، ولو شهادة واحد ، وينتصر الشافعي في الجدل في نظر المناصرين للبهنيين ، فيسمى لذلك ناصر السنة .

وكانت تلك المجادلات تجري أحيانا باللسان ، وأحيانا بالمسكاتبة ، كرسالة مالك إلى الليث بن سعد ، ورد مالك عليه . وكانت هذه المجادلات الفقهية تجري في كل مكان في مكة ، في موسم الحج ، وفي الأمصار الإسلامية في بغداد والبصرة ، والسكوفة ، ودمشق ، والقسطنطينية ، ومجالس الخلفاء والأمراء ، فحيثما سار الفقيه وجد من يناظره في سبيل الوصول إلى حل فقهي في مسألة يتفق مع الحق من الشرع الإسلامي ، أو يغالبه في نصر فكرة أو رأى ، مغالبة لا يريد بها للحق علوا ، ولكن ينبغي لنفسه علوا واستحوازا ، وسلطانا .

١١٩ — ولم يكن ذلك الجدل بين الفقهاء وحدهم ، بل كان بينهم ، وبين علماء الكلام من المعتزلة والجهمية والمرجئة وغيرهم ، وبين علماء الكلام بعضهم مع بعض ، كما كان يجرى بين المعتزلة والجبورية ، وبين علماء الكلام وغيرهم من المهاجرين للإسلام ، أو بينهم وبين الفلاسفة غير المسلمين الذين أقاموا بالديار الإسلامية ، كأولئك الذين انتحلوا نحلة السوفسطائيين ، كما جرى مثلاً بين النظام ، وبعض هؤلاء الشككيين ، وبين النظام والمناوية ، وغيرهم .

وفي الجملة إن ذلك العصر كان عصر احتكاك فكري بين نحل مختلفة ، وبين مذاهب عقلية مختلفة ، وبين آراء فقهية مختلفة ، ومن طبيعة الاحتكاك الفكري أن تتولد عنه المناظرات التي يقصد بها الوصول إلى الحق في القضايا المتنازعة ، والمجادلات التي يقصد بها الغلب العقلي والسلطان الفكري ^(١) .

والنوعان كانا كثيرين في هذا العصر ، فهناك جدل كان للغلب ، واحتياز المجالس وجدل كان لتحرى الحق .

(١) قد صور ابن قتيبة في كتابه (اختلاف اللغز) الجدل الذي كان يغلب على ذلك العصر فقال : « كان طالب العلم فيما مضى يسمع ليعلم ، ويعلم ليعمل ، ويتفقه في دين الله لينتفع وينفع ، وقد صار الآن يسمع ليجمع ، ويجمع لينكر ، ويحفظ ليغال ، ويفخر ، وكان المتناظرون في الفقه يتناظرون في الجليل من الواقع والمستعمل من الواضح ، وفيما ينوب الناس ، فينفع الله به القائل والسامع ، وقد صاروا أكثر التناظر فيما دق وخفى ، وفيما لا يقع وصار الغرض منه إخراج لطيفة ، وغوصاً عن شريعة وردا على متقدم ، فهذا يرد على أبي حنيفة وهذا يرد على مالك ، والآخر على الشافعي بزخرف من القول ، ولطيف من الحيل ، كأنه لا يعلم أنه إذا رد على الأول صواباً عند الله يتمويه ، فقد تقلد الماتم عن العاملين به دهر الداهرين ، وهذا يطمع بالرأي على ما مضى من السلف ، وهو يرى ، وبالاتباع في دين على آخر ، وهو يبتدع وكان المتناظرون فيما مضى تنياظرون في معادلة الصبر والشكر ، وفي تفضيل أحدهما على الآخر في الوسوس والخطرات ، ومجاهدة النفس ونعم الهوى ، وقد صار المتناظرون يتناظرون في الاستطاعة والتولد والطفرة ، والجوء والعرض والجوهر ، فهم دائبون تحتبطون في العشوات قد تشعبت بهم الطرق ، وقادهم الهوى بزمام الردى .

وكان آخر ما وقع من الاختلاف ، من الذين لم يزالوا بالسنة ظاهرين ، وبالاتباع قاهرين ، يداجون بكل بلد ولا بداجون ، يستتر منهم بالنحل ، ولا يستترون ، ويصدعون بحقهم ولا يستغشون ، لا يرتفع بالعام إلا من رفعوا ، ولا يتضع فيه إلا من وضعوا ولا تيسر الركبان إلا بذكر من ذكروا وابن قتيبة توفي سنة ٢٧٦ هـ إذ يحكى هذا الجدل إنما يذكر العصر الذي عاش فيه أحمد ، وما قاربه ، وفيه نرى أن الجدل قد ساد التفكير في ذاك العصر

١٢٠ — ولعل أظهر بيان لروح العلم في ذلك العصر، والاحتكاك الفكري وثمراته الامام الشافعي، فانه قد جاء حاملا لروح ذلك العصر، حاكيا لماشاكاه الفكرية في الفقه والسنة، ففيه بيان حال أولئك الذين كانوا ينكرون الاحتجاج بالسنة، من بعض علماء البصرة، وفيه حال أولئك الذين كانوا لا يحتجون بخبر الآحاد، ولا يقبلون من السنة إلا ما كان متواترا، أي خبر جماعة، على حد تعبير الشافعي، وقد كان رد الشافعي عليهم قويا، ومناقشته لهم حاسمة، إذ ضيق عليهم السبل، حتى أخذ الحق من أفواههم، وفيه مناقشة لأولئك الذين يقدمون القياس على خبر الآحاد، أو يردون بعض أخبار الآحاد، لعام القرآن، وفيه مناقشة الذين يقدمون بعض المأثور عن الصحابة على خبر الآحاد، ونرى تلك المناقشات في أبواب مختلفة، من مثل كتاب اختلاف مالك، وفقه العراقيين، والرد على سير الأوزاعي، وفيه بحث مستفيض لابطال الاستحسان، ورد من يأخذ به، وهو في هذا يرد على المالكيين، والعراقيين، وغيرهم، ممن تجاوزوا في الاستدلال الفقهي النص، أو الحمل على النص.

وفي الجملة إننا لانجد كتابا يقرأ فيه القارئ الصور الفقهية لعصر الاجتهاد، وخصوصا الزمن الذي نشأ فيه أحمد بن حنبل، ككتاب الأم، فانه بسط الآراء المختلفة ما وافق عليه أقره، وأيده بالأدلة القوية، وما خالفه رده ونقده، وبين وجه الزيف فيه عنده.

ولم يجهل الكتاب حاملا لروح العصر بمعانيه فقط، بل جاء حاملا لهذه الروح في شكله أيضا، فقد جاء في شكل مناظرات، يحكيها، أو يفرضها، فهوى يحكي في ذلك الكتاب ما كان يقوم بينه وبين غيره من مناظرات، وأحيانا يفرض مجادلا يوجه إليه القول، وتجرى بينهما المناظرة.

١٢١ — وإذا كان العصر عصر جدل، واحتكاك فكري، ونضج في العاوم الدينية وقد وجد فيه من ينسكرك السنة، ومن ينكر الاحتجاج بخبر الآحاد، فماذا كان تأثير ذلك كله في نفس أحمد رضي الله عنه؟

إن تأثير العصور والبيئات في نفوس مفكرها مختلف باختلاف اتجاه هؤلاء المفكرين، وباختلاف ما يستسيغونه من عناصر البيئة، وإن بيئة فكرية كالعصر

العباسي الذي عاش فيه أحمد يختلف تأثيرها، إذ كان فيه أخلط فسيكولوجية مختلفة ، فهو لا ينكرون الاحتجاج بخير الأحاد ، وأولئك يقبلون خبر الأحاد ، ويقدمون عليه القياس، وأولئك يجعلون فتاوى الصحابة من السنة، ويوازنون بينها وبين أخبار الأحاد ، وأولئك يتشددون في الاستمسك بالسنة ، ولا يقدمون أى دليل على ما تجيء به السنة ، ويخصصون بها عام القرآن، لأنها بيان له ، ومن البيان تخصيص العام ، وتقييد المطابق . فاحمد قد أخذ من هذا الغذاء المختلف الألوان ما يتفق مع نزوعه ، ويتلاءم مع مزاجه ، ومسلكه الذي وجه إليه منذ نشأته الأولى ، وهو الاتجاه إلى السنة، وتعريف فتاوى الصحابة وكبار التابعين، والتخرج على ذلك المأثور ، حتى إنه من فرط شغفه بمعرفة آثار الصحابة والتابعين عد من التابعين ، كما جاء على لسان بعض دارسيه ، لأنه لعنايته باتباع فتاوى الصحابة قد صار من تلاميذهم ، إذ قد تلقى عنهم بالخبر ، والآثار ، وإن فاتته المشاهدة والعيان .

وإذا كان الجدل قد ساد عند طائفة كبيرة من معاصريه ، فقد وجد في هذا العصر أيضا من كان ينفر من الجدل ، لأنه يلقى الشكوك ، ويفسد الفسك ، فكان مالك ، وسفيان الثوري ، وابن المبارك وغيرهم يبغضون الجدل في الدين ، ويرون أنه ليس من التدين القويم أن يجعل المؤمن دينه غرضا لسهام الجدل ، وهدفا للنصوص الفسكورية ، وقد اختار أحمد رضى الله عنه ذلك المنزع ، فنفر من الجدل والمجادلين نفورا شديدا .

الفرق الإسلامية

٢٢ - لقد جاء على لسان احمد رضى الله عنه أسماء بعض الفرق الإسلامية ، وناضلها ، لحق علينا أن نذكر كلمة معرفة تعريفها موجزا أشد الأيجاز لهذه الفرق المختلفة ، حتى يكون القارىء على علم بمعانى الأسماء التى جاءت فى هذا ؛ فإنه فى هذا العصر كان يقوم المنتحلون لهذه الفرق بنشر أفكار بين المسلمين خالفوا فيها مناهج المحدثين والفقهاء ، وأزعجوا أولئك بحملهم عليهم بقوة الساطان ، كما ذكرنا عند الكلام فى مسألة خلق القرآن ، ومسألة رؤية الله يوم القيامة التى أراد الواثق أن يحمل الفقهاء والمحدثين على اعتقاد استحالتها ، كما هو مذهب المعتزلة .

وكان من حقنا أن نمر عليها مر السكرام ، لولا أن احمد كان على علم بها ، وابتلى ببعضها ، ولذلك حق علينا أن نشير هذه الإشارة ، لنستطيع عند الكلام فى آراء احمد فى أصول الاعتقاد أن نذكر رأى احمد فى موضوع الآراء الذى أثرت حوله آراء هذه الفرق المختلفة .

والفرق التى يعرفها هى الشيعة ، والخوارج ، والقدرية ، والجهمية ، والمرجئة .

١٢٣ - والشيعة يعدون أقدم الفرق الإسلامية ، ظهروا بمذهبهم فى آخر عصر عثمان رضى الله عنه ، ثم فى عصر على ، وكان ينمو عددهم من بعد ، كما اشتد الظلم بالبيت الهاشمي ، من بنى أمية .

والشيعة فى جملتهم يرون أن على بن أبى طالب أحق المسلمين بخلافة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم فرق مختلفة ، بعضهم يتجاوز حد الدين فى تقديس على رضى الله عنه ، وبعضهم مقتصد لم يتجاوز حد الدين ، ولم يكفر أحدا من الصحابة ، ولم يؤثمهم ، وأظهر هؤلاء المعتدلين الزيدية ، وهم أتباع زيد بن على زين العابدين ، وقد كانوا يرون صحة إمامة الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وجواز إمامة المفضلين ، وجواز أن يكون هناك إمامان فى عصر واحد ، بحيث يكون كل واحد منهما إماما فى قطره ، وقد كان أولئك الزيدية يعتقدون أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار ؛ لأنه فى منزلة بين

بين المؤمن ، والكافر ، كما هو رأى المعتزلة ، وقد قتل زيد في عصر هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ .

ومن الشيعة من لم يخرج عن الاسلام ، ولكن في آرائهم غاى ، ومن هؤلاء الغلاة السكيسانية ، وهم أتباع المختار بن عبيد الشقي الذى ظهر فى أول الدولة المروانية ، وكانوا يعتقدون أن الخليفة من أولاد على بعده - الحسن ، ثم الحسين ، ثم محمد بن الحنفية ، وهم يعتقدون بتناسخ الأرواح ، ويرون أن لكل شىء ظاهرا وباطنا ، وإن الامام اختص بعلم الباطن .

ومن الغلاة أيضا الامامية الاثنا عشرية ، وهم الذين يعتقدون أن إمامهم الشافى عشر غاب فى سر من رأى ، وأهم ينتظرونه من قبل ، ولا زالوا ينتظرونه إلى اليوم . وهؤلاء يعتقدون أن الامام منصوب عليه بالاسم دون الوصف ، كما يقول الزيدية ، ويعتبرون الأئمة بعد الحسين ، محمدا الباقر ، ثم جعفرا ، وهكذا ، حتى الثانى عشر الذى غاب ، وينتظر ، ومنهم اليوم سكان فارس .

ومنهم الامامية الاسماعيلية ، وهم يرون كالاثنا عشرية أن الامام بعد النبى صلى الله عليه وسلم معين بالاسم ، ويعدون الامام بعد محمد الباقر جعفرا كالاثنا عشرية ، ثم من بعد جعفر ابنه اسماعيل ، وهم يرون أن الامام يجوز أن يكون مكتوما ، ولذا سماوا الباطنية ، وكان من هؤلاء من تولوا الحكم فى مصر ، وهم الدولة الفاطمية .

أما الذين خرجوا من الشيعة عن الاسلام بانحرافهم ، فمنهم السبئية أتباع عبد الله ابن سبأ ، فقد ألهوا عليا ، حتى حرق بعضهم .

ومنهم الغرابية ، وهم الذين زعموا أن النبوة كانت لعلى ، ولكن جبريل أخطأ ، ونزل على النبى صلى الله عليه وسلم ، لما بينة وبين على من شبهه ، كشبه الغراب بالغراب . ١٢٤ - ومن الفرق السياسية الخوارج ، وقد ظهوروا فى جيش على رضى الله عنه ،

غلب قبوله فسكره التحكيم بعد أن حملوه عليها ، إذ ثاروا بعد قبوله لها صائحين لا حكم إلا لله ، وزعموا أن عليا رضى الله عنه كفر بقبوله التحكيم ، وأن عليه أن يتركه ، وأن يتوب بعد هذا الكفر ، وقد بغوا عليه ، فقاتلهم ، حتى خضد شوكتهم ، ولكنهم شغلوه عن معاوية ، وكانوا سبب ضعفه .

ولما جاءت الدولة الأموية كانوا شوكة تقض مضاجعها ، وتوالى خروجهم .
وجملة آرائهم أنه لا يوجد بيت أولى من بيت بالخلافة ، وأن الخليفة يختار اختيارا
حرا من المسلمين جميعا ، والأولى ألا يكون له عصية ، حتى يسهل خلعه ، ويكفرون
من يرتكب ذنبا .

وهم فرق مختلفة ، ويتفاوتون مغالاة واعتدالا في أعمالهم وتفسكيرهم ، وأشدهم غلوا
الأزارقة ، وهم أتباع نافع بن الأزرق ، وأقربهم إلى الجماعة الإسلامية الإباضية ، وهم
أتباع عبد الله بن إباح ، وهم يرون أن مخالفيهم ليسوا كفارا ، ولا مشركين ، بل هم
كفار نعمة ، وأن دماء مخالفيهم حرام ، وأنه يجوز شهادتهم ، ولا زالت بقية باقية من
الإباضية بالمغرب .

وبين الإباضية والأزارقة فرق مختلفة ، منهم النجدات أتباع نجدة بن عويمر اليماني
من قبيلة بني حنيفة ، والصفورية أتباع زياد بن الأصفر ، والعجاردة أتباع عبد الكريم
ابن عجرد .

ومن الخوارج من خرجوا عن الإسلام ببعض آرائهم ، وهم فرقان .
(إحداهما) اليزيدية أتباع يزيد بن أنيسة ، وقد زعم أن الله سيرسل رسولا من
العجم ينزل عليه كتاب ينسخ الشريعة المحمدية .

(وثانيتهما) الميمونية أتباع ميمون العجردى . وقد أباح نكاح بنات بنات الابن ،
وبنات أولاد الأخوة والأخوات ، لعدم ذكرهن في المحرمات في زعمه ، وروى عن
هؤلاء الميمونية أنهم أنكروا سورة يوسف ، ولم يعدوها من القرآن .

١٢٥ - هذه إشارة موجز إلى الفرق السياسية ، أما الفرق الاعتقادية ، وهى
الفرق التى أثارت مسائل تتصل بالاعتقاد ، فنمها .

المرجئة : وهى فرقة كانت تخطط بالسياسة أصول الدين ، ورأيها الذى امتازت به
يقابل رأى الخوارج فى المسألة التى أثاروها ، وهى مسألة مرتكب الذنب ، أهو مخلد فى النار
فقد قال المرجئة إنه لا تضر مع الايمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة . ولقد كان
المعتزلة يطلقون كلمة مرجى . على كل من لا يحكم بأن صاحب الكبيرة مخلد فى النار ،

ولذا قيل عن أبي حنيفة مرجىء ، وجعله الشهرستاني من مرجئة السنة الذين يرجون عفو الله للمذنبين ، لا الذين يستبيحون المنكرات .

ومن الفرق الاعتقادية الجبرية أو الجهمية ، وهم الذين قالوا إن الانسان ليس له إرادة فيما يفعل ، والله سبحانه وتعالى هو الفاعل لكل مايجرى على يديه ، إن خيرا أو شرا ، وأنه في أفعاله كالريشة يحركها الطواء ، وقد شاع القول بالجبر في العصر الأموي وقيل: أول من جهر به الجهم بن صفوان ، ولذلك يسمون الجهمية ، والجهم كان من أول من قال إن القرآن مخلوق ، ولذلك يجرى على لسان احمد رعى القائلين هذا القول بأنهم جهمية ، وإن كان المعتزلة الذين يخالفون الجهم في أفعال الانسان كل المخالفة يقولون هذا القول .

ومن الفرق الاعتقادية القدرية : وهم الذين يقولون إن الانسان يخلق أفعال نفسه الاختيارية. ومنهم من سموا في التاريخ الاسلامي باسم المعتزلة، وقد كان لهم شأن كبير في الفكر الاسلامي في عصر العباسيين ، إذ هم الذين تولوا الرد على الزنادقة ، وأهم مبادئهم خمسة، هي :

(١) التوحيد وفسروه بأن الله سبحانه وتعالى واحد في ذاته ، وفي صفاته ، فلا يشاركه أحد من المخلوقين في أى صفة ، ولذلك نفوا رؤية الله .

(٢) العدل من الله سبحانه وتعالى ، ولذلك اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن يخلق الناس أفعالهم ؛ ليكون الثواب والعقاب ، والتكليف بوجه عام .

(٣) الوعد والوعيد بأن يجازى المحسن باحسانه ، ومن أساء يجزيه سوءا ، فلا يغفر لمرتكب الكبيرة كبريته .

(٤) أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المؤمن والكافر ، وقد يسمى مسلما فاسقا ولكن لا يسمى مؤمنا قط ، وهو مخلد في النار .

(٥) الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فقد قرروا وجوبهما على المؤمنين ، نشرأ للدعوة الاسلامية ، وهداية للضالين ، وكل بما يستطيع ، فذو السيف بسيفه . وذو اللسان بلسانه ، والله سبحانه وتعالى هو الهادي .